خصــوم النبــى

عليـه الصـلاة والسـلام

(المشـركون ، اليهـود ، بعض المستشـرقين)

مأمـون غــريب

دار الهدى للكتاب

خصــوم النبــى

عليه الصلاة والسلام

(المشركون، اليهــود، بعض المستشرقين)

دار الهدى للكتاب
تليفون : ٣٦٠٤٦٠١ / ٠٤٧ - ٣٦٠٣٦٠١ / ٠٤٧ - ٣٦٠٢٦٠١ / ٠٤٧

مطابع آمون
٤ الفيروز من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٧٩٤٤٥١٧ - ٧٩٤٤٣٥٦

- جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
- الطبعة الأولى : ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م
- رقم الإيـداع : ١٧٥٢٧ / ٢٠٠٤
- الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-6150-03-9

مقـــدمـة

شخصية الرسول الكريم محمد بن عبد الله من اعظم الشخصيات الــذى عرفها التاريخ فى كل العصور .. فقد استطاع أن يوحد القبائل العربــية فى دولة واحدة تستظل بنور الوحدانية وشريعة الله ، وتنعم بالإسلام ، وكانت هذه الدولة بداية انطلاق الفتوحات الإسلامية الكبرى والحضـــارة الإســـلامية الـــتى غزت العقول والقلوب ومدت أضواء المعرفة فى كل بقاع العالم .

ومـــن خـــلال هذه الحضارة الإسلامية التى أشرقت على الدنيا وأضـــاءت كل جوانبها ، وبعثت الحياة فيها ، وأبرزت أهمية أن تقرأ كـــتاب الكون كما تقرأ كتاب الله ، فانتشلت العالم من الجهل والخرافة وبرزت شخصية الرسول الكريم كبشر يوحى إليه .

ومـــع ذلك فقـــد حـــاربه البعض بلا هـــواده ، وكرهه البعض بلا مبرر .

حاربـــه مشركوا مكة بغضاً وحسداً ، وانتصر عليهم . وحاربه اليهود وهم يعرفون حقيقته وأنه آخر أنبياء الله ، ولكن حقدهم عليه ، وحســـدهم له كان بلا حدود لأنهم كانوا يريدون أن يكون النبى الخاتم منهم لامن العرب .. ومع ذلك فقد أبطل حججهم ، وظهر نور الإسلام رغماً عنهم ، واستطاع أن يكسر شوكتهم .

وكذلـــك حاربـــه بعـــض المستشرقين تعصباً وجهلاً وحقداً ، واتهمـــوه بما ليس فيه ، وكانت حججهم فى هذا الهجوم أو هى من خيوط العنكبوت .

فـــتهاوى حقدهم ، وظل الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم مـــن عرفهم البشر فى تكامل شخصيته ، وعظم أخلاقه التى ترتفع إلـــى ذرا لـــم يصلها قبله ولن يصلها بعده إنسان آخر فهو كما قال عنه ابن كثير :

معلـــوم لكـــل ذى لب أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) من أعقـــل خلق الله تعالى ، بل أعقلهم وأكملهم على الإطلاق فى نفس الأمـــر ، وقـــد وصفته هند ابن أبى هالة ربيب النبى عليه الصلاة والسلام فقال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان ، دائم الفكـــر لـــيس له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتـــتح الكـــلام ويخـــتمه بأشداقه . ويتكلم بجوامع الكلم ، فضلاً ، لا فضـــول فيه ، ولا تقصير ، دمثاً ليس بالجافى ولا المهين يعظم الـــنعمة وأن دقـــت ، لا يـــذم شيئاً ، لم يكن يذمه ، ولا يمدحه ، ولا ينام له غضب ، إذا تعرض أحد للحق بشئ ، حتى ينتصر له ، إذا أشـــار بكفـــه كلهـــا ، وإذا تعجب قلبها ، وإذا تحدث اتصل بها فضـــرب بإبهـــامـــه اليمنى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشـــاح ، وإذا فرح غض طرفه ، جل ضحكه التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام ، وقد وصفه أبو هريرة فقال :

" كان يقبل جميعاً ، ويدير جميعاً ، بأبى وأمى لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً فى الأسواق " .

وانظـــر إلـــى صـــورة مـــن أخلاقياته عندما ذهب يوما مع أبى هريرة إلى السوق فأشترى سراويل ، وقال للوزان زن وأرجح

(أى أوف الميزان) فيثب التاجر إلى يد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يقبلها ، فجذب يده وقال هذا ما كانت تفعله الأعاجم بملوكها ، ولست بملك ، إنى أنا رجل منكم ، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقــال صــلى الله علــيه وسلم : صاحب الشئ أحــق بشــيئه أن يحمله " وكان عليه الصلاة والسلام جوّاداً سخيا .. كريما ملئ قلبه بالرحمة ..

قال الله تعالى :

لقــد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " .

وكان لا يغضب إلا للحق ، وكان يدعو ربه فاملأ : " اللهم إنى بشر من البشر ، أغضب كما يغضب البشر فأيما رجل دعوت عليه ، فــأجعل ذلك له زكاة ورحمة ، وصلاة وطهوراً ، وقربه تقربه إليك يوم القيامة " .

وكان أزهد الناس وأعبدهم وأتقاهم لله :

قالت أم المؤمنين عائشة :

" مــا شـــــبع أل محمد عليه الصلاة والسلام من خبز ، حتى قبض ، وما رفع من مائدته كسرة قط " ، فهو شخصية بالغة العظمة . ويكفى ما قاله الله سبحانه وتعالى عنه :

" وأنك لعلى خلق عظيم "

وقد قال هو عن نفسه :

" أدبنى ربى فأحسن تأديبى " .

قال على بن أبى طالب :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته ؟ فقال :

" المعـــرفة رأس مـــالى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكـــر الله أنيســـى ، والـــثقة بالله كنزى ، والحزن رفيقى ، والعـــلم ســـلاحى ، والصـــبر ردائـــى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلتى ، وقرة عينى فى الصلاة " .

لقـــد عـــرفه الـــناس قبل ظهور الإسلام من أكثر الناس أمانة ورجولـــة حتى سموه الأمين .. مع ذلك عندما نادى بدعوة الإسلام ، حـــنق علـــيه الـــبعض وعـــادوه عـــداوة بلا حدود كعمرو بن هشام (أبو جهل) وعمه أبو لهب ، وأمية بن خلف وغيرهم .

واليهود أشاعوا قبل الإسلام بقرب ظهور النبى الخاتم ، وعندما ظهر النبى عليه الصلاة والسلام حاربوه ، لأنهم كانوا يريدونه منهم . ومن ذلك ما ذكره أحد الأنصار (مسلمة بن سلام) فقال :

كان لنا جار من يهود بنى عبد الأشهل ، فخرج علينا من بيتة ، حـــتى وقـــف على بنى عبد الأشهل ، فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان ، والجنة والنار ، فقالوا له : ويحك ، أو ترى هذا كائناً : إن الـــناس يبعـــثون بعـــد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ، ويجزون فيها بأعمالهم ؟!

قال : نعم والذى يحلف به . فقالوا له : ويحك فما أية ذلك ؟

قـــال : نـــبى مـــبعوث نحـــو هذه البلاد ، وأشار بيده إلى مكة المكرمة واليمن :

فقالوا له : ومتى نراه ؟

قال مسلمة .. فنظر إلىّ وأنا من أحدثهم سناً فقال : " أن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه "

و ... مع ما كان يعتقده اليهود عن النبى المنتظر ،

فقــد حـــاربوه عـــندما هاجر من مكة إلى المدينة رغم أنه من أمَّـــنهم على أموالهم وحياتهم ومعتقداتهم !

ومـــن الذين حاربوه ويحاربونه حتى اليوم بعض المستشرقين ، الذين لا يرون فيه نبياً ، وقالوا عنه ما ليس فيه ، وعابوا عليه ما ليس فـــيه أيضـــاً ، مـــع أن الـــبعض منهم عرف قدره وعظمته ، ومنهم " كارليل " الذى قال ما قاله عنه عليه الصلاة والسلام :

" ولقــد أخـــرج الله العـــرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحـــيا من العرب أمة هامدة وأرضاً هامدة ، وهل كانت إلا فئة من جوالـــة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ، ولا تحس منها حركة ، فأرسل الله لهم نبياً بكلمة من لدنه ، ورســـالة مـــن قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض بتاهة والضعة رفعه ، والضعف قوة والشرارة حريقاً ، وسع نوره الأنحاء ، وعـــم ضـــوئه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال والجنوب ، والمشرق والمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجـــل فـــى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقباً عديـــدة ، ودهـــوراً عديـــدة بنور الفضل والمروءة والبأس والنجدة ، ورونـــق الحق والهدى على نصف المعمورة .. إلى آخر ما قال هذا الرجل المنصف .

ومــع ذلك نرى الكثير من المستشرقين من حــاد عن الحق ، واندفع إلى التفكير الغوغائى البعيد عن الموضوعية .

ومــن هــنا جاء هذا الكتاب .. يلقى الضوء على هؤلاء الذى خاصموا الرسول بلا مبرر من عقل أو منطق فعرفت نياتهم ، وذهبت ســيرتهم فــى طــى النسيان ، وبقيت صورة الرسول العظيم .. فى المكانــة الجديرة بعظمته .. وستظل رسالته نور هداية للناس إلى يوم البعث والنشور .

مأمون غريب



الفصل الأول

النبى والمشركون

أبو جهـــل

كـــان عمـــرو بن هشام أشد الناس عداوة للإسلام ونبى الإسلام حـــتى أســـماه النبى " أبا جهل " بدلاً من أبى الحكم وكان يطلق عليه أيضاً فرعون هذه الأمة .

فما سبب عداوة أبى جهل للإسلام ونبى الإسلام كل هذه العداوة التى زادت عن الحد ؟

هل لأن النبى عليه الصلاة والسلام جاء بدين التوحيد الخالص . ونـــادى بالحـــرية والعدالة والتسامح وحسن الجوار . واتسم بالرحمة والعدل والعفو والارتفاع عن الدنايا والصغائر . وكانت دعوته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعد الإيمان بالله وملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر !

أغلـــب الظن أن عداءه الشديد للنبى عليه الصلاة والسلام كان يكمن فى الحسد .

فقد كان يحسد النبى على ما آتاه الله من النبوة والحكمة .

وتـــروى كتـــب السيرة كيف أن القرآن الكريم بإعجازه قد بهر العـــرب ، حـــتى أنهم كانوا يحاولون سماعه سراً ، وهم أصلاً أهل بلاغة وفصاحة .. من ذلك أن ثلاثة من أهل مكة وهم " أبو ســـفيان ابـــن حـــرب " وأبو جهل ، والأخنس بن شريق الثقفى خرجوا ليلاً ليســـمعوا الرسول وهو يقرأ القرآن أثناء صلاته فى بيته ، وكان كل

واحد منهم يأخذ مكاناً حتى لا يراه أحد ، وعندما جمعهم الطريق فى أثـــناء العودة ، أخذوا يتلاومون ويعاهدون أنفسهم أنهم لن يفعلوا ذلك مرة ثانية ولكنهم عادوا فى الليلة التالية .

وفى الليلة الثالثة ، وفى كل مرة يتلاومون ، ثم يتعاهدون على عدم العودة إلى فعل ذلك .

فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ثم أتى " أبا سفيان " فى بيته فقال :

أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو سفيان :

يـــا أبا ثعلبة ، والله لقد ســـمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس :

وأنا والله كذلك .

ثم أتى الأخنس أبا جهل فقال له :

يا أبا الحكم : ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال أبو جهل :

ماذا سمعت ؟!

تنازعـــنا نحـــن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا .. وحملـــوا المغارم فحملنا ، وأعطوا الناس فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا

علـــى الركـــب ، وكنا كفرسى رهان . قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن أبداً به ، ولا نصدقه " .

القضية أذن قضية حسد وغيره وتفكير قبلى جامد .

إن مـــثل أبـــو جهل كمثل غيره من الذين أنكروا على النبى أن يكـــون رسولاً لأنه فقير فقالوا " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " .

وقد رد الله عليهم :

" أهـــم يقســــمون رحمة ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحـــياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً " . (الزخرف ٣٢)

كـــان الحقـــد والحســـد إذن هو الدافع الذى دفع أبا جهل لعداوة الإســـلام ونبى الإسلام ، وأنزل سخطه على المستضعفين الذين آمنوا بـــالدعوة ، بـــل أنـــه كان السبب فى قتل ياسر "والد عمار بن ياسر" وزوجـــته سمية ، حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام خرج ذات يوم إلى ظاهر مكة ، ورأى أبو جهل وهو يعذبهم عذابا فوق طاقة البشر ، فقال لهم الرسول :

صبرًا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة .

ونظر إليه ياسر وهو تحت العذاب وقال :

الدهر هكذا يا رسول الله .

بمعنى أنه سيبقى على دينه أبد الدهر .

وقالت له سمية :

أشـــهد أنـــك رسول الله ، وأن وعدك الحق ، وطعنها أبو جهل بحربة كانت معه ، وكانت سمية أول شهيدة فى الإسلام .

وقال ياسر لأبى جهل :

قتلــتها يا عدو الله ، تعسا لألهتك ، موعدنا الجنة يا سمية ، إن وعد الله حق ، ووعد رسوله صدق فما كان من أبى جهل إلا أن ظل يضربه حتى فارق الحياة .

وســـمح هذا الغبى الجهول لابنهما عمار أن يقوم بدفن والديه ، ولما علم أنه عاد يتابع الرسول عليه الصلاة والسلام ، عاد من جديد إلى تعذيبه حتى أنه تحت وطأة العذاب ، ردد ما قاله أبو جهل له بأن اللات والعزى خير من دين محمد .

ولكنه عندما آفاق من غيبوبة العذاب ، اخبر الرسول بما حدث وهـــو يـــبكى ، وأنه قال ما قال لأنه كان على حافة الموت ، فقال له الرسول الكريم : يرحمك الله يا ابن سمية ، أخذك الكفار فغطوك فى الماء حتى قلت ما قلت . فإن عادوا فعد " .

ثم قال له الرسول : فكيف تجد قلبك ؟

قال عمار : أجده مطمئناً بالإيمان .

قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : الحمد لله فإن عادوا فعد وأنزل الله فى شأن عمار قوله :

من كفر بالله من بعد إيمـــانه إلا من اكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شـــرح بالكفر صـــدراً فعليهم غضب من الله ، ولهم عذاب عظيم " . (النحل ١٠٦)

وكان أبو جهل يقول : ألا تعجبون من هؤلاء ؟

لو كان ما أتى به خيراً ما سبقونا إليه ، أيسبقنا هؤلاء لرشاد ؟

وعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله :

وقـــال الذين كفروا للذين آمنـــوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه . وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم " . (الأحقاف ١١)

ومن طريف ما ترويه كتب السيرة .. إن جاء رجل يطلب حقه مـــن أبى جهل ، وكان قد اشترى أبو جهل منه إبلاً ولم يعطه حقه – واســـتنجد الرجل بأهل مكة ، وتساءل كيف يأخذ حقه من أبى جهل ، وأشـــار أحدهم إلى محمد قائلاً له أن هذا الرجل هو الذى يستطيع أن يـــرد لـــك حقك ، قالها متهكما بالطبع فهو يعرف ما بين النبى وأبى جهـــل مـــن عداوة ، وصدق الرجل كلامه وطلب من النبى أن يعينه علـــى أخذ حقه من أبى جهل ، فما كان من النبى إلا أن أخذ الرجل ، واتجه إلى بيت أبى جهل وطرق الباب ، وعندما فتح أبو جهل الباب ورأى النبى امتقع وجهه والنبى يأمره أن يعطى لصاحب الحق حقه .

وأخـــذ الرجل حقـــه ، وتعجبت قريش من الذى حدث ، وسألوا أبا جهل لماذا أعطى الرجل حقه عندما طلب منه محمد ذلك ؟

فقال لهم أبو جهل :

ويحكـــم .. والله ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعباً ، ثم خرجت إليه وأن فوق رأسه لفحلا من الإبل .. والله لو أبيت لأكلنى !

ومـــع أن أبا جهل قد رأى هذه المعجزة ، وأن النبى صلى الله علـــيه وســـــلم فـــى حماية ربه ، ومع ذلك ظل على جحوده وكفره وعناده !

وتمر الأيام ..

وهاجر الرسول وأصحابه إلى المدينة ، وبعد ثمانية عشر شهراً من هجرتهم سمعوا أن هناك قافلة لمكة تتحرك نحو الشام وفيها ألف جمل ، وعلى رأس القافلة أبو سفيان ابن حرب .

وعزم المسلمون على مهاجمة هذه القافلة ، فقد خرجوا من مكة وقد تركوا أموالهم فيها ، وأنه قد آن الآوان أن يتعرضوا لهذه القافلة ، تعويضاً عما سلبهم منهم المشركون ، ولكن القافلة أفلتت من المسلمين واتجهت إلى الشام ، وقرر الرسول مراقبة عودة القافلة ، وعندما علم اليهود بما ينوى عليه المسلمون ، أرسلوا إلى أبى سفيان من ينذره بما ســـوف يفعلـــه المســـلمون بالقافلة ، وأرسل أبو سفيان إلى مكة حتى تســـرع لإنقـــاذ تجارتهـــا ، واجتمعت قريش فى دار الندوة ، وقامت بتألـــيف جيش لمواجهة الرسول ، جيش يتكون من تسعمائة وخمسين رجـــلاً ، ومعهـــم ســـبعمائة بعير ومائة فرس ، وأخذوا معهم بعض المغنيات والجوارى ، لبعث الحماسة فيهم أثناء القتال !

ووسوس لهم الشيطان بأنهم سوف ينتصرون على المسلمين ، وأنه ليس بقدرة محمد وأتباعه الوقوف أمامهم ، وقد صور القرآن العظيم هذا الموقف بقوله :

" وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم : فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال أنى برئ منكم " .   (الأنفال ٤٨)

وكان أبو سفيان قد انحرف بقافلته نحو الساحل ، واستطاع الإفلات ، وعاد سالما إلى قريش بعد أن نجت التجارة من المسلمين ، ولكن أبا جهل اعترض على ذلك ، وأصر على مواصلة السير ومهاجمة المسلمين وقال لهم :

" والله لا نرجع حتى نأتى بدرا ، ونشرب خمرا ، ونسمع القيان ونطعم الطعام ، وتسمع العرب بذلك ، فلا تزال تهابنا أبدا " .

واندفع واندفعت معه قريش ، بعد أن اتهم أبو جهل البعض بالجبن ، واندفع الجميع بحمية الجاهلية صوب بدر !

وعلم الرسول بذلك واستشار المهاجرين والأنصار ، وأبدى الجميع رغبتهم فى الجهاد فى سبيل الله وإعلان كلمة الحق ، فقد قال له (سعد بن معاذ) نيابة عن الأنصار .. وقال مما قاله للرسول صلى الله عليه وسلم :

" فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك . فو الله الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف

مـــنا رجـــل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا . إنا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله " .

وســـار المسلمون حتى نزلوا بأقرب مكان من الوادى ، وأشار الحـــباب بن المنذر أن يكون موقعهم بقرب الماء ، واستجاب الرسول لـــرأى المنذر ، وفى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وأقاموا للنبى عريشا ، ورأى النبى مقدم الأعداء فرفع يديه إلى السماء داعياً :

" اللهـــم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادُك ، وتكذب رسولك .. اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم أهلكم هذه الغداة .

ولم يكن عدد المسلمين سوى ثلاثة وسبعين رجلاً من المهاجرين ومائتين وأربعين من الأنصار ، ومعهم سبعون بعيراً وأربعة أفراس ، وحمل رأية الأنصار سعد بن معاذ ، وحمل راية المهاجرين مصعب بن عمير .

ودارت المعـــركة حـــامـــية ، بعـــد أن بدأت بالمبارزة كعادة العرب .. فقد تقدم من المشركين (عتبة بن ربيعة) وعن يمينه أخوه (شيبة) وعن شماله ولده (الوليد) .

وتصـــدى لهـــم الحمـــزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب وعبيده بن الحارث .

وقـــتل شيبه ، وقتل على الوليد ، وجرح عبيدة عتبة ، ثم تقدم علـــى والحمـــزة فقـــتلاه و .. أخـــذت المعركة فى التصاعد ، وإذا

بالمسلمين وهم يحاربون لا يرغبون إلا فى الجنة ينتصرون ، وانهزم الأعداء .

ورأى معاذ بن عمرو ، أبا جهل فضربه بسيفه ضربة طيرت قدمــه ونصف ساقه ، ورأى عكرمة ما حل بأبيه فاتجه نحو معاذ بن عمــرو ، فــتوجه فــتى آخر من الأنصار فضرب أبا جهل برمحه وأســقطه علــى الأرض ، وحاول أبو جهل أن يتخفى حتى يأتى من ينقذه ، ولكن عبد الله بن مسعود رآه وعرفه فتوجه نحوه ووضع قدمه فوق عنقه وداس عليه فنظر إليه أبو جهل وقال له :

لقد ارتقيت مُرتقى صعياً يا رويعى الغنم !!

وأســرع ابن مسعود إلى رسول الله يخبره بمقتل عدو الله أبى جهل ، فقال الرسول الكريم :

الحمــــد لله الذى أخــزاك يا عــدو الله .. اليوم هلك فرعون هــذه الأمــة .

وفــى هــذه المعركة قتل من المشركين سبعون رجلاً ، وأسر مثلهم .

وأمــر النبى أن يحفر للمشركين قليب ، ويهال عليهم التراب ، وخاطبهم بقوله :

" يا أهل القليب ، بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم .

كذبتمونى وصدقنى الناس :

وأخرجتموني وأواني الناس .

وقاتلتموني ونصرني الناس

هــل وجــدتم ما وعدكم ربكم حقــاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقا ؟ .

فقال المسلمون :

يا رسول الله أتنادى قوماً جُيفوا ؟

فقال عليه الصلاة والسلام :

لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حق .

وهكــذا انتهــت حياة عمرو بن هشام ، أو أبو جهل كما سماه رسول الله ، لأنه عادى الدعوة عداء سافراً ، وعذب المستضعفين في الأرض ظلمــاً وتجــبرا وطغياناً ، ووقف ضد الإسلام ، وساعد بكل صلفه وغروره وكبريائه على حصار المسلمين في شعب أبي طالب ، حتى فك هذا الحصار الظالم ، ولم يهدأ له جفن في إظهار العداء للنبي والكراهــية له ، لقد ظل على عناده وحسده حتى مات على الكفر في معركة بدر .

أبو لهـــب

فـــى دار الأرقم بن أبى الأرقم وهى دار منعزلة عن مكة على جـــبل الصـــفا . كان الرسول عليه الصلاة والسلام يجتمع بمن آمن بالإســـلام عـــندما بلـــغ عددهـــم قرابة الثلاثين .. منهم أبو بكر بن أبى قحافة . وعثمان بن عفان . وأبو عبيدة بن الجراح . والزبير بن العوام . وسعد بن أبى وقاص . وطلحة بن عبيد الله وغيرهم . وكان مـــن أوائل من اسلموا زوجته السيدة خديجة بنت خويلد . وابن عمه علـــى بـــن أبـــى طالب . وزيد بن حارثة . وقد بدأ النبى يدعو إلى الإســـلام فـــى أول الأمـــر سرا إلى المقربين إليه . إلى أن أمره الله ســـبحانه وتعـــالى بالجهـــر بهـــا . عندما نزل قوله تعالى : " وأنذر عشـــيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إنى برئ مما تعملون" (الشعراء ٢١٤ . ٢١٦)

وكان على الرسول أن يلبى دعوة ربه ، وأن يتحدث مع أقرب الـــناس إليه فأقام وليمة بمنزله ودعا إليه أقاربه من بنى هاشم ، وكان من بينهم عمه عبد العزى الملقب " بأبى لهب " .

وكان أبو لهب كما يقول عنه الرواة جهير الصوت ، يخلو قلبه مـــن الرحمة ، سريع الغضب ، وكان فارع الطول ، أحول العينين ، غزيـــر الشعر ، كما كان أجش النبرات .. وكان شديد الحرص على العناية بالأصنام التى تمتلئ بها الكعبة .. وكأنه يريد رضاها قبل أن يمارس أعماله اليومية فى الصيد وغيره !!

وكان أبو لهب متزوجاً من أم جميل " أروى بنت حرب " أخت أبى سفيان ، وكان والدا لعتبة ومعتب .

وكان الرسول الكريم يأمل أن يسلم أقاربه فيكونون عونا له فى دعوته عند الجهر بها ، ويكونون سنده حين يكذبه الناس .

وكان أبو لهب قد سمع بدعوة أبن أخيه ، وبدلا من أن يكون له سنداً وعوناً ، كان هو نفسه عقبة فى سبيل هذه الدعوة ، يسفه صاحبها ، ويغرى الناس ألا يؤمنوا بما يدعو إليه من عبادة الله الواحد ، والبعد عن عبادة الأصنام وعدم اتخاذها وسيلة للتقرب إلى الله ، لأنها صماء عمياء بكماء لا تنفع ولا تضر !

وبعد الانتهاء من الطعام أراد الرسول أن يتكلم ويدعوهم إلى الإسلام ، ولكن أبا لهب سبقه فى الكلام وقال :

يا محمد : هؤلاء عمومتك وبنو عمك وقد بلغنا أنك خرجت على دين قومك ودعوت إلى دين جديد .. فلا تعرضن قومك إلى غضب العرب ، فإنهم يغضبون لدينهم ، ويأبون أن يفارقوه ، وليس لنا قدرة على حربهم .. فأرجع إلى دين أبائك وأجدادك فهو خير لك ، وإلا حبسناك حتى تشفى من مرضك هذا ، فنحن أولى بتأديبك من أن يؤدبك غيرنا ، فيصبح ذلك عاراً علينا !

سمع الأقارب من عشيرته هذا الكلام فبهتوا وران عليهم الصمت ، وانصرفوا إلى منازلهم وقد أخذتهم مفاجأة أبى لهب .

ودعاهم الرسول مرة أخرى إلى وليمة فى بيته وحضر أفراد العشيرة وحضر معهم أبو لهب ، فلما فرغوا من الطعام ، وقف عليه الصلاة والسلام وقال لهم :

الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

أما بعد :

فــــإن الــــرائد لا يكــذب أهلـــه ، والله لو كذبت الناس جميعاً مـــا كذبـــتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس عامة .

وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه فقال :

" وأنذر عشيرتك الأقربين " .

وأنـــا أدعوكـــم إلـــى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين فى الميزان ، شهادة أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله .

يـــا بنى عبد المطلب ، والله ما أعلم شـــابا جـــاء قومه بأفضل ممـــا جئتكم ، إنى جئتكم بخـــير ما فى الدنيـــا والآخرة فمن يجيبنى إلى هذا الأمر ؟ ويؤازرنى على القيام به ؟

وأسرع أبو طالب ليتحدث قبل أن يتحدث أبو لهب كما فعل فى المـــرة الأولى ، فهو يعلم مشاعر أبى لهب تجاه محمد بن عبد الله ، وهى مشاعر لا تليق بعم على ابن أخيه .

قـــال أبـــو طالب لابن أخيه هؤلاء قومك مجتمعون ، وإنما أنا كأحدهم ، وإن كنت أكثرهم معرفة بك . وأنت والله الصادق الأمين ، ما جربت عليك كذباً قط فأذهب لما أمرت به ، لا نتخلى عنك أبدا .. غير أنى لا أريد أن أفارق دين عبد المطلب " .

وبيـــنما استحسن القوم قول أبى طالب ، وقف أبو لهب يصيح وقد أحمر وجهه ، وتهدج صوته الجهورى وقال :

هــذا والله العــار .. خــذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم ، فإن أسلمتموه حينئذ ذللتم وإن منعتموه قتلتم !

وخرج أبو لهب متوعدا ابن أخيه ، وكارها له وللدعوة ، وكان يســاعده علـــى ذلك زوجته أم جميل التى كانت تكره أن يظهر النبى ويعلو صيته بين الناس !

وعندما أمر الله رسوله أن يجهر بالدعوة ، ونزل قوله تعالى : " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين " . (الحجر ٩٤)

كـــان على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقوم بإبلاغ الناس بأمـــر الدعـــوة فقـــد آن له أن يجابه الناس ، وآن له أن ينشر دعوته جهارا نهارا لا يخشى أحدا إلا الله ، وصعد النبى جبل الصفا .. وأخذ يـــنادى مختلف القبائل ، وعندما اجتمع حوله الناس قال عليه الصلاة والسلام :

يـــا بـــنى فهـــر .. يا بنى عدى .. وأخذ ينادى بأسماء القبائل المختلفة وقال لهم :

" أرأيـــتم لـــو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟

قالوا : ما جربنا عليك كذبا قط .

قال عليه الصلاة والسلام :

- فـــإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد وهنا صاح أبو لهب بصوته الأجش النبرات وقال :

- ألهذا جمعتنا .. تبا لك !

وانصرف الناس ، ولا حديث لهم إلا هذه الدعوة التى ينادى بها محمد بن عبد الله .. فقد جهر النبى بالدعوة ، وآن له أن يتلقى ردود الأفعال ، أما عن موقف أبى لهب فقد نزل قوله تعالى :

" تبـت يـدا أبـى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصـلى نارا ذات لهب ، وأمراته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد " .

وما كاد أبو لهب يسمع هذه الآيات حتى جن جنونه ، كما جنت زوجته أم جميل ، فكان يمشى وراء النبى عليه الصلاة والسلام أثناء دعوته الناس إلى الدين الجديد ، وكان يكذبه فيما يقول !!

وبلـغ به الحمق والغباء والكراهية العمياء ، أنه كان مع قريش عـندما قررت أن تحاصر النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابـه فى شعب من شعاب مكة ، بعد أن اتفقوا على مقاطعة النبى وأصحابه .. لا يـتزوجون مـنهم ، ولا يبتاعون منهم ولا يشترون ، وكتبوا بذلك وثـيقة ظالمة علقوها فى جوف الكعبة .. لم يُحيد نفسه لصلة القرابة التى تربطه بالنبى ، ولكنه جاهر بعدوانه وكراهيته .

وذات يـوم بعـد وفـاة أبى طالب وخديجة بنت خويلد أخذت أبو لهب نوبة من نوبات الحنان ، فأخذ يدافع عن أبن أخيه حتى بدأت قريش تخشى التعرض له ، ولكنه سرعان ما عاد إلى ما كان عليه ، عندما عايره أبو جهل بأنه صبى ، وترك دين الآباء والأجداد ، فرجع أبو لهب عن دفاعه عن الرسول ، بل عاد إلى مناهضة دعوتـه .

وهاجر النبى إلى المدينة ..

وهناك آخى بين المهاجرين والأنصار ، ووضع صحيفة المدينة التى كانت الدستور الذى ينظم أمورها ، وآمن اليهود على معتقداتهم وأموالهم على ألا يخونوا بنود هذه الصحيفة .

عـــندما حقق الرســـول كل هذه الإنجازات ونزلت آيات الجهاد كقوـــله تعـــالى : " أُذن للذيـــن يقـــاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصـــرهم لقدير . الذين اخرجـــوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .." . (الحج ٣٩ ، ٤٠)

وقوله تعالى :

" وقـــاتلوا فـــى ســـبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ،

(البقرة ١٩٠ ، ١٩١)

وكان لابد أن يجابه الرسول صلف مكة وجحودها وكبرياءها .. وكانـــت معركة " بدر " حيث انتصر الإسلام ، وانهزم الكفر ، وقتل أئمـــة الشـــرك فى هذه المعركة الفاصلة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال .

كـــان وقع الهزيمة أليما على مكة . فقد فقدت شخصيات كانت ملء السمع والبصر بها .. وفقدت أيضاً هيبتها بين العرب .. فما كان يتصـــور أهـــل مكة أن محمداً الذى خرج منذ قليل مع أصحابه إلى المدينة ، سوف يكون له كل هذه القوة التى قهرت مكة ، وأصبح هذا النصر حديث العرب فى كل مكان ..

وكـيف أن قريشـاً فقدت سـبعين من فرسانها ، وأسـر مثل هذا العدد ! .

وكـان ذهـول أهل مكة شديداً ، عندما سمعوا من أحد اللذين جـاءوا مـن هـذه المعركة وهم يجـرون ثوب الخزى والعار وهو يقول لهم :

" والله مـا كان إلا جولة حتى أعطيناهم اكتافنا ، يقتلون فينا ، ويأسرون ولا ندرى ما حدث لنا "

وكـأن السـماء قد أرسـلت لهم من يعينهم علينا ، فكنا نسمع رعداً ، ونرى برقاً ، والريح تقذف أعيننا بالحصى والتراب .. فلم نعد نبصر شيئاً ، إلا رجالاً منا يتساقطون تحت أقدامنا " .

وكان " أبو لهب " من أشد الناس غيظاً مما حدث للمشركين فى مكة ، وكأنه لم يصدق ما حدث ، وبدلاً من أن يعود للصواب ، وأن يـدرك أن الـذى أحـرز هـذا النصر هو ابن أخيه ، إذا به ينتابه نوبـات من الحزن العميق ، حتى أصيب بمرض جلدى عضال لم يمهله إلا أسبوعاً ، ثم هلك .. وهالوا عليه التراب .

ومرت الأيام

وكـل يـوم يزداد عدد المؤمنين بالدين الجديد .. حتى استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يفتح مكة ، وأن يعفو عن أهلها رغم ما فعلـوه بالنـبى ، فهم الذين أرغموه على أن يهاجر منها ، وهم الذين أجـبروا بعـض أتباعه إلى الهجرة إلى الحبشة ، ثم إلى الهجرة إلى المديـنة ، ومع ذلك فأعظم رسل الله برحمته وحلمه وحبه لأهله قال لأهل مكة عندما سألهم :

- ماذا تظنون أني فاعل بكم ؟

- أخ كريم وابن أخ كريم .

- اذهبوا فأنتم الطلقاء .

بهذه السماحة استقبل المنتصر العظيم أهل مكة وعفا عنهم !

وسأل عن عتبة ومعتب أبناء أبى لهب ، وطلب أن يحضروهما إليه ، وعندما جاء إلى الرسول أخذهما ومشى بينهما إلى الملتزم ودعا لهما ، وعندما انتهى من دعائه كان يبدو عليه السرور ، وعندما سئل عن ذلك قال :

- أني استوهبت ابنى عمى هذين فوهبهما لى . وهكذا نرى أى قلب رحيم كان ينطوى عليه قلب خاتم رسل الله .

لقـد أعلـن عتبة ومعتب أولاد أبى لهب ايمانهما بالدين الجديد وحسن اسلامهما .

أمية بن خلف

كـــان أمـــية بن خلف أحد أثرياء مكة ، فقد كان صاحب تجارة كبيرة . وربى أولاده على الشح وكنز المال . وعندما امتدت به السن قام على خدمة الأصنام والعناية بها . وكان الحجيج الذين يأتون للحج والتبرك بهذه الأصنام ينذرون النذور التى تكون من نصيب سدنة هذه الأصـــنام وكان من الطبيعى أن يكره الدعوة الإسلامية التى نادى بها ســـيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام .. فهذه الدعوة تنادى بعبادة الله الواحد الأحد . ونبذ عبادة الأصنام والأوثان . والإيمان بالله وملائكـــته وكتـــبه ورســـله والـــيوم الآخر .. بينما كانت العرب فى جاهليتها . ترى أن هذه الأصنام تقربهم إلى الله زلفى .

ولكنهم لم يكونوا يعتقدون بأن الإنسان بعد أن يموت يبعث من جديد ، حيث الثواب والعقاب .. والجنة والنار .

ولـــذا نرى أخاه – أبى بن خلف – على شاكلة أخيه ، حتى أنه أخـــذ ذات يـــوم عظمـــا باليا ، وذهب به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام قائلاً له :

يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما ترم ؟

وفتت العظم ونفخه نحو الرسول .

فقال الرسول :

نعــم أنـــا أقــول ذلك .. يبعثه الله وأياك بعدما تكونان هكذا ثم يدخلك الله فى النار .

وقد صور القرآن الكريم هذه الحكاية فقال :

" وضـــرب لـــنا مثلا ونسى خلقــه قال من يحيى العظام وهى رمـــيم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذى جعــل لكــم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الـــذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم " . (يس ٧٨ – ٨١)

وأبى بن خلف هذا هو الذى كان يبحث عن الرسول لقتله أثناء غــزوة أحــد ، فمـــا كان من الرسول أن أخذ حربة وطعنة فى عنقه فتلوى الرجل من الالم ومات فى طريق العودة إلى مكة .

وأمـــية بن خلف هو الذى عذب بلال بن رباح عذابا فوق طاقة البشر فقد كان بلال أحد عبيده .

وعـــندما أسلم لم يطق ذلك أمية ، وطلب من بلال أن يعود إلى الكفـــر ، وكان الإيمان قد ملأ قلب بلال بالأنوار ، وبالتالى كان من المســـتحيل أن يعود لعبادة أصنام لا تنفع ولا تضر ، كما يفعل سيدة أمية بن خلف !

فما كان من أمية ألا أن يطرحه فى صحراء مكة القاسية تحت لهيب الشمس ويضع على صدره صخرة كبيرة ، لعله يعيده إلى عبادة

الأصـــنام ، إلا أن بلال تحمل كل هذا العقاب ، وهو يردد كلما اشتد عليه العذاب : أحد .. أحد .

ومر أبو بكر رضى الله عنه ببلال وأمية يقوم بتعذيبه فقال له :

ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟

فقال له أمية :

وما شأنك به .. عبد لنا نصنع به ما نشاء !

قال له أبو بكر :

أنزع الله الرحمة من قلبك فلا تحس بألمه ؟

رد أمية :

أنـــتم أفســـدتموه بدينكم فاستحق هذا العذاب وطلب أبو بكر من أمية أن يشتريه ، فطلب أمية سبع أواق من الفضة ، واشتراه أبو بكر واعتقه وأصبح بلال حراً .

وكلما زادت الدعوة انتشاراً زادت محاربة المشركين لها ، حتى أنهـــم عذبـــوا النبى عليه الصلاة والسلام وحاصروه مع قومه قرابة ثلاثة سنوات ، بعد أن تعاهدوا على محاصرة بنى هاشم فى شعب من شعاب مكة ، وفق صحيفة ظالمة تعاهدوا فيها على مقاطعة بنى هاشم وظلوا يعملون وفق ما جاء فى هذه الصحيفة الظالمة التى علقوها فى الكعـــبة قـــرابة سنوات ثلاث ، إلى أن نقضوها ووجدوا أن الأرضة أكلت كل ما فى هذه الصحيفة من جور إلا كلمة باسمك اللهم .

ويـــروى ابـــن مســـــعود مدى تعنت المشـــركين مع الرسول الكريم فقال :

" كـــنا يومـــاً فى الكعبة والرســـول يصلى ويتعبد ، ونحن من حولـــه .

فقال أبو جهل لجماعة من قريش : ألا رجل منكم يقوم إلى بنى فـــلان فقد ذبحوا شاة ، فيأتى بكرشها وقذرها فيلقيه على محمد وهو ساجد !!

فنـــنظر مـــــاذا يصنع ذلك الرجل الذى يزعم أنه يتطهر لكل صلاة .

فقـــام " عقـــبة بن أبى معيط " من بين القوم ، وذهب إلى الشاة وجـــاء بكرشها وإنجاسها ثم القى ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم وهو ساجد فى صلاته !

قال ابن مسعود :

فلـــم يقـــدر واحد منا نحن المسلمين الذين حول النبى صلى الله علـــيه وسلم على إبعاد ذلك عنه ، فقد كنا حينئذ قله وكانوا كثرة وكنا ضعفاء وكانوا أقوياء .

ولـــم يزل الرسول ساجدا كذلك حتى جاءت ابنته " فاطمة " فلما رأتـــه صرخت فى وجوه القوم وأخذت تنحى الكرش عن أبيها وهى تبكى ، ثم جاءت بالماء وأخذت تطهر له ثوبه .

ولمـــا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته رفع صوته بالدعاء عليهم :

ثم قـــال : اللهم عليك بقريش ثلاثا .

فلمـــا ســـمعوا صـــوته وهو يدعو عليهم - وكانوا يضحكون ويسخرون تناهوا عن الضحك وخافوا دعوته .

ثم قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

اللهم عليك بأبى جهل بن هشـــام ، وعتبـــة بن ربيعة ، وشيبه ابـــن ربيعـــة ، والوليـــد بن عتبـــة ، وأمـــية بن خلف ، وعقبة بن أبى معيط .

قال ابن مسعود : وذكر شخصاً سابعاً لم احفظه ثم قال :

والـــذى بعث محمداً بالحق ، لقد رأيت الذى سماهم النبى صلى الله عليه وسلم صرعى يوم بدر .

لقد عجزت قريش أن تحول بين الرسول وبين أن يحدث الناس عن دعوته ليؤمنوا بها ، ويخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام .

وكـــان من الصعب على قريش بكل ميراثها من الحقد والحسد على الرسول وبنى هاشم أن يستجيبوا لدعوته .

أى أنه أصبح من الصعب أن يتلاقى الإيمان والكفر ، وما كان مـــن قـــريش إلا أن فكرت فى التخلص من الرسول نفسه ، ودبرت

مؤامرة لاغتياله وأوحى للرسول بما يعتزمه القوم ، وأمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة إلى المدينة !

وتأهب الرسول للهجرة مع الصديق ، وسمح للمسلمين بالهجرة أيضاً إلى المدينة .

وفـــى اللـــيلة التى تواعد فيها المشركون على قتل النبى ، كان النـــبى قـــد أمر " على بن أبى طالب " أن ينام بدلا منه على فراشه ، وحتى يرد للناس ودائعهم عند رسول الله .

وخرج الرسول من بيته المحاصر ، وهو يتلو قوله تعالى :

" وجعلنا من بين أيديهم ســـداً ومن خلفهم ســـداً فاغشيناهم فهم لا يبصرون " ..

خرج من بين صفوف هؤلاء الذين جاءوا لقتله ولم يدروا به فقد غشـــيهم الـــنعاس ، وكـــان مـــن بين هؤلاء الذين جاءوا لتدبير هذه المؤامـــرة الدنيئة أمية بن خلف – الذى طالما كان يهمز ويلمز على رسول الله حتى أن بعض المفسرين من أمثال الإمام القرطبى قال أن سورة الهمزة نزلت فيه :

" ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلـــده ، كـــلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة " .

وقال مجاهد : هى عامة .

لقــد هاجــر النــبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وامسك بــزمام الأمور بها ، وأصبحت الدعوة لها قوتها ، والأبواب مفتوحة أمامها للانطلاق ، وما كان هذا بالطبع ليرضى المشركين فى قريش ، أو المنافقيــن والــيهود فــى المدينة ، فكان لابد أن يحدث التصادم ، وحدث بالفعل ، وكانت البداية بين المسلمين ومشركى مكة فى موقعة " بدر الكبرى " حيث انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة المشركة فقد قــتل مــن قــريش سبعون رجلاً ، فيهم أربعة وعشرون من سادتهم وفرسانهم واسر منهم سبعون آخرون .

كانــت هذه المعركة نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الدعوة ، فلم يعــد المســلمون يــتلقون العذاب والمهانة بصبر وسلبية ، بل أصبح أمــامهم القــتال مشــروعاً ، دفاعاً عن عقيدتهم وعرضهم وأموالهم وأنفسهم .

وفــى هــذه المعركة تذكر بلال بن ربــاح ما فعله به أمية بن خلــف ، وكيف كان يعذبه على رمال مكة فى لهيب الصيف ، وكيف كــان يغرى الأطفال به ، امتهانا به وازدراء له .. ونظرته إليه كعبد يفعل به ما يشاء وكيف يشاء دون أن يؤنبه ضمير ، ولا حتى دون أن يســتحى من فعلته الشنعاء .. وأخذ بلال يبحث عن أمية بين صفوف المقاتلين إلى أن عثر عليه ورآه وقد استسلم لعبد الرحمن بن عوف .. وأنه يريد أن يصبح أسيراً حتى لا يقتل فى المعركة ، وكانت فرصة أن يأخذ بثأره الذى لم ينسه قط طوال ما مر به من السنين ، وحاول عبد الرحمن بن عوف أن ينقذه من الموت ، منبهاً بلال أنه أسيره .

ولكن بلالاً كان مصمما على قتله ، فلم ينس جراحه أبدا ، ولم تندمل هذه الجراح أبداً .. لقد صاح بلال عندما رآه .

رأس الكفــر أمــية بن خلف لا نجوت أن نجا ونادى بلال فى الصحابة أن يساعدوه فى التخلص من رأس الكفر ، وجاء من يساعد بلال ويجهز على عدو الله أمية بن خلف وولده على .

لقد تحقق النصر للمسلمين .. ورجعت قريش تجرر أذيال الخيبة والهــزيمة والعــار ، بيــنما أخذ المسلمون يكبرون وهم سعداء بما أحــرزوه من نصر ، وأمر الرسول أن يحفر " قليب " لدفن القتلى ، غــلا أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه حتى ملأها ، وعندما ذهبوا لــيحركوه تزابل لحمه ، فوضعوا فوقه الحجارة والتراب حتى واروه الثرى .

كعب بن الأشرف

كـــان كعـــب بن الأشرف يهودياً .. وكان يبشر بقدوم نبى يعيد الأمـــور إلى نصابها ويبشر بقيمه وفضائله للناس ، ولكنه عندما علم بالدعوة حقد على النبى عليه السلام وعلى المسلمين .. وكان كعب بن الأشرف شاعراً ، واتخذ من شعره وسيلة للتشبيب بالمسلمات . ومن هؤلاء اللاتى تعرضن لهذا فى شعره أم الفضل بنت الحارث . والتى قال فيها مثل هذه الأبيات :

أراحـــل أنـــت لـــم تحـــلل بمنقبـــة وتـــارك أم الفضـــل بالحـــرم

صفراء رائعة لو تعصر أنعصرت من ذى القوارير والحناء والكتم

إلـــى آخـــر أبـــياته الشـــعرية التى تدل على عدم حرصه على حرمات الناس .

وقد بلغ به الفجور والوقاحة أنه رثى من قتل من المشركين فى (بدر) وكان يريد بذلك إغاظة المسلمين .. فقد قال عن قتلى بدر :

.. هـــؤلاء أشراف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد قد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها !!

بـــل أنه ذهب إلى مكة يحرض الناس على قتال المسلمين ، ثم عـــاد ليشـــبب فى نساء المسلمين فى المدينة ، بلا خوف من غضب الناس وهم يستمعون إلى أشعاره البذيئة فى نسائهم ، ولكل ذلك أوغر

صدور المسلمين نحو هذا الذى غرَّه أنه يملك أموالاً كثيرة جمعتها له أمه من بنى النضير .

وما كان من الناس أن ذهبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام متحدثيــن لــه عن هذا الشاعر الذى يهجوا أعراض نساء المسلمين ، وأن هــذا الــيهودى ســوف يشعل فتنة قد لا تخمد أوراها ، وأنه آن الآوان للــتخلص منه وقتله ، حتى يأمنوا مؤامراته وسفالته ووضاعة لسانه ..

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : من لى بابن الأشرف ؟

قال محمد بن سلمة الأنصارى : دعه يا رسول الله لى لأقتله .

قال النبى صلى الله عليه وسلم : فافعل أن قدرت على ذلك !

فقال ابن مسلمة :

يا رسول الله ، إنه لابد من ان تقول قولا حتى نتمكن منه .

قــال النــبى علــيه الصلاة والسلام : قولوا ما بدا لكم فالحرب خدعة .

ولكــن محمد بن مسلمة وجد أن الأمر ليس بالسهولة التى كان يتصــورها فكعــب بــن الأشرف لا يعيش بمفرده ، وإنما يعيش فى حصــن وحوله الفرسان ، مما جعله يجمع بعض صحبه الذين كانوا يرون نفس الرأى بضرورة قتل عدو الله .

فهــذا الرجل اليهودى الذى يعلم أن رسول الله على حق ، وأنه جــاء بكتاب منزل ، عندما ذهب إلى مكة ألَّب أهلها على الرسول ،

عندما سألوه أن يمدح آلهتهم ويقول ما لا يعتقد بأنهم على حق ، وأن المسلمين على الباطل ، مما عبر عنه القرآن الكريم بقوله :

" ألــم تــر إلـــى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطـــاغوت ، ويقولـــون للذيـــن كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا ســـبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً ".

(النساء ٥١ – ٥٢)

هذا رجل ملأه الحقد والحسد ولن يعود عن حقده وحسده .

مـــن هنا فقد ذهب ابن مسلمة ومعه بعض صحبه الذى يعرفهم ابن الأشرف .. وذهب إليه أحدهم وتحدث معه وتحدثا فى الشعر ، ثم قال لابن الأشرف :

ويحـــــك يا ابن الأشرف . إنى قد جئتك فى حاجة أريد ذكرها لك .. فاكتم عنى " .

قال له كعب بن الأشرف : وما حاجتك .

كان قدوم هذا الرجل – يقصد النبى – بلاء من البلاء .. عادتنا بـــه العـــرب ، وتجمعت علينا من أجله ، وقطعت علينا السبل حتى جاعت العيال وقل المال .

قال كعب :

لقد كنت أخبرتكم أن الأمر سيصير إلى ما تقول .

وقـــد أردت أن تبيعنا طعاماً ، ونرهن لك ، ونوثق الرهن على أن تحسن معاملتنا .

قال كعب : ارهنونى أبناءكم ونساءكم !!

- هل تريد أن تفضحنا بين أحياء العرب ؟

وإن معـــى أصحاباً على مثل رأيى ، فقد أردت أن أتيك بهم ، فتبيعهم وتحسن إليهم فى ذلك ، على أن نرهنك من السلاح والدروع ما فيه وفاء لدينك علينا قال كعب .

أجل إن فى الدروع وفاء .

واتفق الرجل مع كعب بن الأشرف على موعد ، ورجع الرجل يحدث أصحابه بما تم من اتفاق بينه وبين كعب بن الأشرف .

وفـــى اليوم المحدد ذهب القوم إلى حصن كعب بن الأشرف ، وكـــان الوقـــت ليلا ، ونادى أحدهم عليه ليقابل أصحابه للاتفاق على ماتم . وكانت الليلة مقمرة ، وخرج إليهم كعب بن الأشرف ، رغم أنه كان حديث عهد بعرس ، ورغم أن عروسه حذرته من الخروج .

وتحـــت ضـــوء القمر الشاحب ، أدعى أحدهم أنه يريد أن يشم الرائحة المنبعثة من رأسه ، وعندما مال كعب ، أمسك الرجل برأسه وطعـــنه زمـــلاؤه بالســـيوف ، ولم يتركوه إلا جثة هامدة .. وبذلك استطاع المسلمون أن يتخلصوا من لسانه البذئ .. ومن تحريضه على المسلمين .

وجـــاء فى الخبر أن النبى صلى الله عليه وسلم أقر مقتله فعاب بعـــض المؤرخين الأوروبيين ذلك وحسبوها خروجاً من سنن القتال يشـــبه مـــا فعلـــه نابلـــيون الكبير حين أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته يغير حق مع ما بين الحادثين من بون .

ويقول الأستاذ العقاد :

" إلا أنـــنا نوجـــز هنا فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولى فى أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشـــــرف ، وأن لـــم يـــبلغ مـــبلغه من القدر والكيد والإساءة إلى الأعراض .

وذلـــك هو حكم الأسير الذى ينطلق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال ، فإن القانون الدولى يوجب عليه أن يوفى بعهده ، ووجب على حكومـــته ألا تندبه إلى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه ، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه ، أو على حلفائهم المحاربين فى صفوفهم ويصح إذن أن يحـــاكم المذنبون ويقضى عليهـــم بالموت ويخرج الأستاذ العقاد من ذلك :

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون جريمة كعـــب ابـــن الأشرف بكثير ، لأنه تجاوز القدر إلى التاليب والائتمار وثلب الأعراض .

وليس فى توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة ، لأن المرجع فيها إلـــى الضـــرورة الـــتى أوجبت القصاص ، وفرضته على الناس فى أحـــوال الســـلم بين أبناء الأمة الواحدة ، فضلاً عن أحوال القتال بين الأعداء " .

هـــذه صورة سريعة عن كعب بن الأشرف الذى ظن أنه بماله الكثـــير الذى يملكه ، وبسلاحه الكثير الذى يستحوذ عليه ، وثقته بين

قــومـــه مـــن الـــيهـــود الذيـــن ألفـــاهم العـــالم على طول التاريخ وعرضـــه لا يعرفون العهود والمواثيق – ظـــن هـــذا الإنسان الغبى الســـليط اللسان .. المتآمر .. إن كل هذه الأمور ســـتجعله فى حصن حصين لا يستطيع أحد أن يصل إليه بســـوء ، ونسى فى غمره غبائه العنصرى – أن الإسلام سوف ينتصر عليه بقيمة ومبادئه وفضائله .. وأن الإسلام جاء ليبقى وينشر أنواره المادية والمعنوية فيغزو القلوب والعقـــول ويمد ضوء الحضارة إلى أقصى مـــدى .. ولو عاش كعب ابن الأشرف قليلاً – لعرف أن المسلمين استطاعوا أن يهزموا اليهود فـــى كـــل المواقـــع ، وأنهم رضخـــوا لمطالب المسلمين .. ولم يغن مكرهم ولا خداعهم عنهم شيئاً .

عـــامر بن الطفيل

كـــان النـــبى علـــيه الصـــلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام بالحسنى ، ولم يفرض الدين على أحد . ولكنه كان يبين للناس ما فيه من نعمة الإيمان بالله الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

ويوضح لهم تعاليم الإسلام الحنيف . وأن هذا الدين جاء ليرفع الـــناس من وهدة عبادة الأصنام إلى عبادة خالق الوجود ، وأنهم بهذا الإسلام سيصبح لهم شأن على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة .

علـــى مستوى الفرد لأنه يرفع من قيمته أمام نفسه وأمام خالقه فلا يمرغ جبينه لحجارة صماء لا تنفع ولا تضر ، وان يرقى بتفكير الإنسان ليتدبر الوجود الذى خلقه الله فيعبد خالق الوجـــود :

ومـــع ذلك حاربوا الدعوة وكادوا لها ، وحاولوا أن يوقفوا تقدم الزمن ، وما دروا أنهم بذلك كانوا يعيشون فى الوهم ، وتسيطر عليهم الجهالة ، لأن نور الله سوف يشق طريقه ولو كره الكارهون .

ومن النماذج الغريبة ، والتى يعرفها كل من يقرأ كتب السيرة ، نموذج عامر بن الطفيل ، فقد كانت له طموحات ، أكبر من شخصه وأكبر من ملكاته الشخصية ، فقد قرر أن ينازع الرسول ، وأن يكون له نداً ، وأن تكون له السيادة على شبه الجزيرة العربية بعد الرسول !

كان شديد المكر .. شديد الخداع .. لا يؤمن جانبه .. فما أكثر ما نافق .. وما أكثر ما غدر .

ونســـى فى غفوته أن النبوة وحى من الله لا دخل للبشر فيها ، وأنـــه لا يملـــك صفات صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ، الذى عـــرفه الناس .. شديد الرحمة بهم .. شديد البر .. شديد الحياء .. له من صفات الوفاء والصدق والتقوى ما يؤهله لحمل رسالة السماء .

نســـى هذا الحقود أنه لا يملك أدوات الدعوة ، وقدم على مدينة رسول الله على رأس جماعة من قومه " بنى عامر بن صعصعة " .. وكان عاقداً العزم على اغتيال أعظم رسل الله عليه الصلاة والسلام .

قال له قومه :

– إن الـــناس قـــد أعلـــنوا إسلامهم فأذهب إلى الرسول وأعلن إسلامك .

قال لهم :

– والله لقد كنت آليت لا انتهى حتى تتبع العرب عقبى .

أفأنا اتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟ .

وكـــان معـــــه أربد بن قيس وهو أخو " لبيد الشاعر " لأمه .. وقال له :

– إذا قدمنا على الرجل " الرسول عليه الصلاة والسلام " .

– فأنى سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فأقتـــله بالسيف !!

أى أنـــه حاك مؤامرة بأن يشغل الرسول حتى إذا ما انشغل به الرسول ووجه وجهه إليه ، قام صاحبه بضرب الرسول بالسيف !

وعـــندما قدمـــوا على الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام قال له عامر :

- خاللـــنى يا محمد .. بمعنى أجعلنى لك صديقاً ! واقترب منه ليشغله .. فأبتعد عنه الرسول قائلاً له :

- لا .. حـــتى تؤمـــن بالله وحده وأخذ عامر بن الطفيل يحاول الاقـــتراب من النبى عليه الصلاة والسلام حتى يتيح الفرصة لصـــديقه " أربد " أن يغتال الرسول ، ولكنه وجد أن صاحبه لا يفعل شيئاً .. وباءت كل محاولاته بالفشل فصاحبه لم يقو على أن يستل سيفه ويضرب به الرسول :

وهنا قال عامر بن الطفيل للرسول :

- ما تجعل لى أن أسلمت ؟

- قـــال لـــه عليه الصلاة والسلام : لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم .

بادره الرجل قائلاً : أتجعل لى الأمر من بعدك ؟

قـــال لـــه الرســـول علـــيه الصـــلاة والسلام : ليس ذلك لك ، ولا لقومك ، ولكن لك أعنة الخيل قال عامر :

- أنا الآن فى اعنة خيل نجد .. أتجعل لى الوبر ولك المدر أى أنه يريد أن يتولى حكم البدو ويترك للرسول الحضر ؟

قال النبى عليه الصلاة والسلام ؟ لا

فقام عامر مهدداً ومتوعداً الرسول ، بأنه سوف يحاربه ويحارب الدعوة ومما قاله :

- أمــا والله لا ملأنها عليك خيلاً جرداً ، ورجالاً مرداً ، ولا ربطن بكل نخلة بالمدينة فرساً " .

وخــرج الرجل بعد أن توعد الرسول ، وسأل صاحبه عن عدم تنفيذ الخطة التى اتفقا عليها ولماذا تجاهل أشاراته عندما كان يقترب من الرسول ويشغله ، حتى يتاح له الفرصة لتدبير مؤامرته الدنيئة .

فقال له صاحبه :

والله ما هممت بقتل محمد ألا رأيتك بينى وبينه أفاقتلك ؟

وفى طريق العودة أصيب هذا الغادر بالطاعون ، ومات فوارُه التراب .

أما صاحبه فقد أصابته صاعقة فى الصحراء وقتلته !

واســتراح الناس من شر هذا الرجل وصاحبه . وقد كان عامر ابــن الطفــيل ملئ بالعقد النفسية التى ورثها نتيجة تصرفاته الحمقاء وغدره بالناس .

فالــرواة يقولــون أنه حارب مع قومه بنى الحارث ، واستعان علــيهم بقبــيلة بنى نمير ، ولما انتصر عليهم تقدم أحد رجالات بنى الحــارث نحوه وقال له – يا أبا على أنظر ما صنعت بالقوم .. انظر إلى رمحى !

وعندما نظر عامر إلى رمح الرجل ، ما كان من الرجل إلا أن ضربه به على جبينه وفقأ إحدى عينيه !

وأورثته هذه العاهة حقداً على الناس ، فصار يفسد فى الأرض ، ولا يرغب فى السلام ، ولكنه كان محباً لإراقة الدماء ، وظلم الناس ، كما زادته هذه العاهة بطشا ، وأغراه نصره على بنى الحارث أن يغير على بنى مرة بن عوف ابن سعد ، وبهم بعض رجالات أشجع بنى ذئب ، ولكنه منى بالهزيمة ، ففر من المعركة عندما رأى أن الدائرة تدور عليه وعلى قومه !

فلم يكن أذن من الشجاعة بمكان ، ولكنه كان شديد الغدر ، وما أكثر ما يرويه الرواة عن غدره ، وعن عدم التمسك بعهد تعهد به ، وكان مصيره عندما أراد الغدر برسول الله ، أن أصابه الله سبحانه وتعالى بالطاعون فمات .

ويقول بعض المفسرين أنه نزلت فيه وبصاحبه هذه الآيات من سورة الرعد :

" سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه ، يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً لا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ، هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقال ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال " . (الرعد : ١٠ : ١٣)

وبذلك طويت صفحة هذا الجاحد الذى ظن نفسه ندا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه من الممكن أن يكون خليفة له ، ورغم ما تنطوى عليه أعماقه من خسة وحقد وشتى ضروب المكر والخديعة ، فكان وبال موقفه الغبى من رسول الله عليه الصلاة والسلام ، إن مات ميته شنيعة .

وآمن الناس بمبادئ الإسلام وفضائله مما غير المجتمع فى شبه الجزيرة العربية تغييراً كاملا .. مع ذلك فقد أضل (أربد) وأراد أن يضل قومه ، ولكن قومه اتبعوا ما جاء به نبى الهدى ، وآمنوا ، وانتقم منه الله سبحانه وتعالى بتلك الصاعقة التى جعلته فى الهالكين .

الوليد بن المغيرة

كان الوليد بن المغير من بنى مخزوم وهو عم أبو جهل شديد الثراء . وكان له عشرة أولاد كان يتباهى بهم . ومنهم خالد ابن الوليد ، والوليد بن الوليد ، وكان لكثرة ماله الذى يفتخر به يقرض الناس بالربا . وقد أهله ذلك لأن يكون أحد المرموقين فى مكة وكان من الذين تستمع لهم قريش فى دار الندوة .

وكان هذا الرجل مع كثرة ماله بخيلاً ضنيناً بماله على الفقراء والمساكين ، وإن انفق فى موسم الحج فذلك كنوع من الفخر والتباهى .

ومع كثرة ما له وبخله ، ومع أنه كان واحداً من زعماء مكة فقد آثر ألا يشرب الخمر ، لأن الخمر تذهب بالعقل ، وتجعل الإنسان فى موقف يزدريه فيه العقلاء .

كما أن الرواة يروون أنه عندما أصاب السيل الجارف قبيل الرسالة المحمدية بيت الله الحرام ، وتصدعت بعض أركانه ، تحمس المغيرة لإعادة بناء الكعبة ، واجتمع فى دار الندوة مع أهل مكة من أجل هذا الغرض ، وعندما علم أن هناك سفينة رومانية قد جنحت بعد أن تحطمت عند – الشعبية – وهو المكان الذى أقيمت عليه مدينة جدة الحالية ، وكانت مرفأ للسفن ، ذهب إلى هناك وأشترى خشبها ، وكان على متن هذه السفينة بانياً ماهراً اسمه " باقوم " فطلب منه أن يقوم بمهمة بناء الكعبة .

وعنـــدما خشى الناس من هـــدم الكعبة ، تقـــدم هو وبدأ الهدم وتابعـــه الـــنـــاس . واتفق الناس على أن يكون بناء الكعبة من مال حـــلال .

ويقول بعض الرواة أنه كان يملك ألف ألف دينار .

وعندما سمع الوليد بالرسالة المحمدية أخذته العزة بالأثم وتساءل لماذا لم تكن الدعوة من نصيبه وهو أكثر غنى وجاها من محمد .. ؟ هذا الموقف الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله :

" وقـــالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعـــنا بعضـــهم فـــوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون " . (الزخرف ٣١ ، ٣٢)

وكان من الطبيعى أن يدفعه حقده وغيرته إلى مهاجمة الرسالة والرسول .

ولكنه وجد كما وجدت قريش أن العذاب لم يحل بين النبى عليه الصلاة والسلام وإصراره على تبليغ الرسالة ففكروا فى طريقة أخرى لعلها تثنى النبى عن الحديث عن الدعوة .

وقـــررت قريش أن ترسل إليه أحد ساداتها لمفاوضته واختارت عتبة بن ربيعة الذى ذهب إلى الرسول وكان الرسول ساعتها بجوار الكعبة .

قال له عتبة بن ربيعة :

يـــا ابن أخى : أنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسباً ونسباً وإنـــك قـــد أتيـــت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وســـفهت أحلامهـــم ، وعبـــت آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاســـمع مـــنى أعـــرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك ترضى منها بعضها " .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

فقال عتبة :

يا ابن أخى إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا .. وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك !

وإن كنـــت تريد ملكاً ملكناك علينا .. وإن كان الذى يأتيك رئياً مـــن الجـــن لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالـــنا حـــتى نشفيك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى ويدَاوى " .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أفقد فرغت يا أبا الوليد ؟

– نعم .

فاســـمع منى .. وأخذ الرسول يقرأ عليه أول سورة " فصلت " إلى قوله تعالى :

" فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود " .

ومـــا كاد يصل الرسول قراءته إلى هذا الموضع حتى ارتعدت أوصال عتبة ، ووضع يده على فم الرسول حتى لا يواصل القراءة ، وشـــعر بتضاؤله أمام آيات الله البنيات . وأسرع متجهاً إلى قومه ، وعندما رآه الناس على البعد قالوا :

والله لقــد رجع " عتبة " إلينا بوجه غير الذى ذهب به ! وسألوه عما صنع فقال لهم :

– والله لقــد سمعت منه قولاً ما سمعت مثله قط .. والله ما هو بشاعر ، ولا كاهن ولا ساحر .

وطلب منهم أن يخلوا بين محمد ودعوته . فما كان منهم إلا أن قالوا له : لقد سحرك محمد يا عتبة

وهــنا نهــض الولــيد بن المغيرة ليذهب إلى الرسول ويقنعه بالعدول عن الدعوة إلى الإسلام .

واســتمع الرســول إلى حديثه الذى يتسم بالغباء ، ثم تلا عليه بعض آيات الذكر الحكيم .. فما كان من الوليد إلا أن أذهب إلى قومه وقال لهم :

والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن .

وإن لـــه لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وأن أعلاه لمثمر ، وان أسلفه لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى " .

وســمعت قريش هذا الكلام من الوليد فانتابها حزن شديد ، لو اسلم هذا الرجل فسوف يسلم بإسلامه عدد كبير من الناس . وإذا كان محمد قد استطاع أن يقنع هذا الرجل ، فقدرته على إقناع غيره سهلة ويســيرة .

وفكرت قريش ماذا تفعل أمام افتتان الناس حتى أعداؤه ببلاغة الرسول وقدرته على الإقناع ، وعدم التساهل فى أمر دينه .

هــنا وقــف أبو جهل وأعلن انه سوف يذهب إلى عمه الوليد ، وانه سيقنعه بعدم تصديق محمد ، وأن يعلن أمام الناس كذبه !!

وذهــب أبــو جهل إلى بيت عمه الوليد ، وأخذ يحدثه عن بنى هاشم الذين يريدون أن يسودوا العرب عن طريق دعوة محمد !.. ثم أخــذ يستثير فيه عوامل الغضب قائلاً له أن قريشاً تتحدث على انهم ســوف يعطون له صدقة ويجمعون له المال وسأله المغير كيف وأنا أكثركم مالا !

فقال له أبو جهل :

يــتحــدثون أنــك إنمــا تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه " !!

وجن جنون المغيرة وتجمع فيــه كل لــؤم الجاهلية وغباؤها .

ومن هنا نزل قــوله تعالى :

" إنــه فكــر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عــبس وبســر ثــم أدبر واستكبر فقال أن هذا إلا سحر يؤثر أن هذا إلا قول البشر سأصليه سقر وما أدراك ما سقر ". (المدثر ١٧ – ١٨)

وهــذه الآيــات الــتى نزلت فى الوليد يفسرها الإمام ابن كثير بقوله :

وهــذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزمى أحد رؤساء قريش لعنة الله .

وترى فى صفوة التفاسير للصابونى وهو يفسر هذه الآيات من سورة القلم :

" فــلا تطــع المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنــيم . إن كان ذا مال وبنين إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم " .

بعد أن شرح مفردات هذه الآيات قال :

قــال المفسرون نزلت فى الوليد بن المغيرة ، فقد كان دعيًا فى قريش وليس منهم ، ادعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة – أى تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يعرف له أب .

قــال ابن عباس : لا نعلم أحــداً وصفه الله بهــذه العيوب غير هــذا ، فألحق به عــاراً لا يفارقه أبــدا ، إنمــا ذم بذلك لأن النطفة إذا خبثــت خبث الولد ، وروى أن الآية لمــا نزلت جــاء الوليد إلى أمه فقال لها .

إن محمداً وصفنى بتسع صفات ، كلها ظاهرة فىَّ أعرفها ، غير التاسع منها يريد أنه " زنيم " فإن لم تصدقينى ضربت عنقك بالسيف !

فقالت له :

إن أبـــاك كان عنينا – أى لا يستطيع معاشرة النساء – فخفت على المال فمكنت راعيا من نفسى فأنت ابن ذلك الراعى !

فلـــم يعـــــرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية " إن كان ذا مال وبنين " أى لأنه كان ذا مال وبنين قال فى القرآن ما قال ، وزعم أنه أســـاطير الأوليـــن وكـــان ينبغى أن يقابل النعمة بالشكر لا بالجحود والتكذيب " إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين " .

أى إذا قرئـــت آيــــات القـــرآن على ذلك الفاجر قال مستهزئاً ساخراً : إنها خرافـــات وأباطيل المتقدمين اختلقها محمد ونسبها إلى الله ، قال الله تعالى رداً عليه متوعداً له بالعذاب .

– سنســـمه علـــى الخرطوم " (أى سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه يعرف بها إلى موته ، وكنى بالخرطوم على أنفـــه على ســـبيل الاستخفاف به ، لأن الخرطوم للفيل والخنزير ، فإذا شبه أنف الإنســـان بـــه كان ذلك غاية فى الاذلال والإهانة كما يعبر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعلى أيديهم وأرجلهم بالأظلاف والحوافر ..

قال ابن عباس :

ســـــنحطم أنفـــه بالســـيف فـــنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش ، وقد حُطم يوم بدر بالسيف .

قال الإمام الفخر :

لمـــا كان الوجه اكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العز والحمية واشتقوا

منه الأنف ، وقالوا فى الذليل رغم أنفه ، فعبر بالوسم على الخرطوم عـن غاية الاذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شين فكيف على أكرم وضع فى الوجه .

ولتطاول الوليد بن المغيرة على القرآن الكريم واتهامه بأنه من أساطير الأولين ، وكان عليه سخط الله فقد عرف الحق ، ولكنه أدار ظهره له .. فكان مصيره جهنم وبئس القرار .

عبد الله ابن أبــى

جاء النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة مهاجرا إليها ، وكان أول مـــا فعلـــه أن آخى بين المهاجرين والأنصار ، ثم كتب صحيفة المديـــنة الـــتى أمَّـــن اليهود فيها على معتقداتهم وأموالهم ، كما أمن الطوائف الأخرى فى المدينة على ألا يخونوا المسلمين . ولا يتحالفوا مـــع أعدائهم ولا يجيروهم . وجمع الرسول عليه الصلاة والسلام فى يديه بين السلطة الروحية والسياسة .

وكانـــت هـــنـــاك فى المدينة طائفة من المنافقين تظهر الإسلام وتبطـــن العـــداء للرســـول عليه الصلاة والسلام ، وكان على رأس هـــؤلاء المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول .

وكـــان من الخزرج ، وكان يستعد قبل أن يهاجر الرسول إلى المديـــنة أن يتوج ملكا عليها ، غير أن هجرة الرسول أضاعت عليه هذه الفرصة فقد التف أهل المدينة حول الرسول ، ولم يعودوا يأبهون بعبد الله بن أبَىًّ ، مما جعله يحقد على الإسلام ونبى الإسلام إذ انتزع الإسلام منه ما كان يحلم به من سلطة وجاه فى المدينة .

ومضـــت الأيـــام .. وزاد التفاف المسلمين حول الرسول ، ثم قامـــت معـــركة (بـــدر) بيـــن المسلمين ومشركى مكة ، وانتصر المســـلمون فى هذه المعركة انتصارا حاسما ، رفع من قيمة المسلمين فـــى المديـــنة ، وعزز مواقفهم ، ووجد عبد الله بن أُبى ، أن الإسلام يســـير فـــى طريق صاعد وأنه ينبغى أن يكون له دور فى المجتمع

الجديد فأعلن إسلامه ، وهو يطوى بين جوانحه النفاق !! وأمر أعوانه مـــن المنافقين بإعلان إسلامهم حتى لا يأخذ المسلمون منهم موقفاً ، وبذلك أصبح هؤلاء المنافقون يضمرون شيئاً ، ويظهرون شيئاً آخر .

وكانـــت هذه الجماعة المنافقة برئاسة عبد الله بن أبى ، تتصل بالـــيهود ، وكل الناقمين على المسلمين ، ليكيدوا لهم ويتآمروا ضدهم إذا ما حدث فى الأمور ما يستدعى وقوفهم ضد الإسلام والمسلمين .

وكـــان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف ذلك كل المعرفة ، ولكنه ترك أمرهم لله ، فالسرائر يملكها الله عز وجل ، وكان يقول :

" لم أؤمر أن انقب عن قلوب الناس أو أكشف عن أسرارهم " .
وقد صور القرآن الكريم هؤلاء المنافقين بقوله :

" ومـــن الـــناس مـــن يقـــول آمنا بالله واليوم الآخر وما هـــم بمؤمنيـــن .. يخـــادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا انفســـهم ومـــا يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهـــم الله مرضا ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون " . (البقرة ٨ – ١٠)

وصـــور الله ســـبحانه وتعـــالى مواقفهم المتخاذلة من الإسلام وهـــــروبهم وتخلفهـــم عن الجهاد ، حتى لا يناصروا الدعوة بقوله تعالى :

" لا يســـتأذنك الذيـــن يؤمـــنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفســـهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بـــالله واليـــوم الآخـــر ، وارتابت قـــلوبهم فهم فى ريبهم يترددون .

ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله إنبعاثهم فثبطهم ، وقيل اقعدوا مع القاعدين " . (التوبة ٤٤ – ٤٦)

وما أكثر الآيات الكريمة التى تصف سلوكيات هؤلاء المنافقين ومواقفهم المتخاذلة ، وأطماعهم وسوء طويتهم .

وقـد ظهر هذا الرجل على حقيقته عندما انتصر المسلمون فى بـدر ، وحاول يهود بنى قينقاع أن يهزأوا بهذا النصر ، ويقللوا من أهميته ، ويظهروا تأييدهم لقريش ، وهذا يعنى أنهم خانوا عهدهم مع الرسول ، وحذرهم النبى من مغبة هذه الخيانة وقال لزعمائهم :

" يـا معشـر يهود ، أحذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة ، واسلموا ، بأنكم قد عرفتم أننى نبى مرسل ، تجدون ذلك فى كتابكم ، وعهد الله إليكم " .

ولكنهم قالوا له :

" يـا محمد أرايتنا مثل قومك ، لا يغرنك أن لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وأنزل الله فى اليهود :

" وإمـا تخـافن من قوم خيانـة فأنبـذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين " . (الانفال ٥٨)

وكـان لابـد من المواجهة .. وواجههم الرسول ، فما كان من الـيهود إلا أن دخلـوا حصونهم ، وحاصرهم الرسول وكان هؤلاء

الـــيهود لهم حلفاء من العرب منهم (عبادة بن الصامت) الذى برئ من أفعالهم ، وكان من هؤلاء الحلفاء (عبد الله بن أبى) الذى أبدى التعاطف معهم ، وقال :

إنى امـــرؤ أخشى الدوائـــر ولا آمـــن من الزمن !! بمعنى أنه لا يدرى المستقبل فربما ينتصرون على المسلمين أى أنه بنفاقه أظهر أنه لن ينحاز إلى أحد لأنه لا يعرف لمن سيكون له النصر !!

وأخـــيراً اضطر اليهود إلى الجلاء عن المدينة على أن يتركوا للمسلمين أموالهم وسلاحهم ، المهم أن ينجو هم وأولادهم ونساءهم !!

وقبل الرسول الجلاء على أن يرث المسلمون أموالهم وديارهم .

وتمـــر الأيـــام ، وفى شعبان من السنة الخامسة للهجرة ، اتجه الرســـــول إلـــى بـــنى المصـــطلق ، عندما علم أنهم يتآمرون على المســـلمين ، وخرج مع المسلمين بهدف البحث عن الغنائم بعض أهل الـــنفـــاق وعلـــى رأسهم عبد الله بن أبى وانتصر المسلمون فى هذه الغـــزوة ، وقد حدث فى أثناء هذه الغزوة أن تخاصم على الماء أجير لعمر بن الخطاب ، مع رجل حليف للخزرج وكان الخلاف حول أيهما يســـقى قبل صاحبه ، وما كان من الأجيران ضرب حليف الخزرج ، واشتعلت فتنة بين المهاجرين والأنصار عندما استعان كل واحد منهما علـــى الآخـــر ، وأخمد الرسول هذه الفتنة ، غير أن عبد الله بن أبى ما كان يرضى أن تهدأ الفتنة وأراد أن يشعلها من جديد ، فأخذ ينفث ســـمومه ، ويهاجم المهاجرين على أساس أنهم دخلاء على المدينة ، وقال :

ولئـــن رجعـــنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ويقصد بالأذل المهاجرين !!

وســـمع الرســـول أن عـــبد الله بن أبى يحرض الأنصار على المهاجرين فغضب ، حتى أن عمرو بن الخطاب قال للرسول :

يا رسول الله ، مر (عباد بن بشر) – وهو من الأنصار – أن يقتله ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

لا ، فكـــيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ولكن أذن بالرحيل " .

وعـــندما علم ابن أبى أن الرسول علم بكل ما قاله ، ذهب إلى الرسول وأنكر أنه تحدث بشئ !!

وفى هذه الغزوة حدث حادث آخر ، واتخذه هذا المنافق وسيلة لإشـــعال نـــار الفتنة ، ويوهن المسلمين ، ويحاول إغاظة النبى عليه الصلاة والسلام ، وعائشة بنت أبى بكر .

ففـــى أثناء هذه الغزوة وبينما المسلمون آخذون فى الرحيل إلى المديـــنة ، كانت فى هذه الحملة أم المؤمنين عائشة ، وكان قد انفرط عقدها ، فأخذت تجمع حبات العقد ، بينما كان المسلمون قد مضـــوا فـــى طريقهم فى طريـــق العودة ، ورآها أحد الصحابة (صفوان بن المعطل) فأركبها راحلته وقادها إلى المدينة ، حتى أعادها .

ورآها عبد الله بن أبى وصفوان يقود ناقتها ، فأتهمها فى شرفها مع هذا الرجل ، وسرعان ما ردد المنافقون قولته !

وعلـــم الرســـول بذلـــك فحزن حزناً شديدا على الافتراء على زوجته الفاضلة ، وسمى هذا الحديث (حديث الإفك) .. أى الكذب ، ونـــزل وحى السماء يبرئ عائشة من هذه التهمة .. ونزل قوله تعالى من سورة النور :

" إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خـــير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم .
. والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم
لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا ، وقالوا هذا أفـــك مبيـــن لـــولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخـــرة لمســـكم فـــيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولـــون بـــأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظـــيم ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدأ إن كنتم مؤمنين " .

(النور ١١ – ١٧)

وبرئـــت عائشـــة من فوق سبع سماوات وتحدث الناس فى كل مكـــان فى المدينة عن هذا الحادث وكيف افترى عبد الله بن أبى كذباً على اهل بيت الرسول الكريم ، حتى أن أبنه (عبد الله) .. توجه إلى الرســـول الكـــريم صلى الله عليه وسلم وكان الابن تقيا صالحا على عكس والده المنافق – وقال :

يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل (عبد الله بن أبى) فيما بلغك عنه .. وقلت من يحذر بى فى رجل آذانى فى أهلى ؟

فإن كنت لابد فاعلا فمرنى به ، فأنا أحمل لك رأسه .

فـــو الله ما علمت الخـــزرج ما كان لها من رجـــل أبر بوالده مـــنى .. وأنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أن انظـــر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فاقتله فاقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : بل نرفق به ، ونحسن صـــحبته ما بقى معنا وتسامع الناس بموقف رسول الله منه ، وبدأوا يشـــعرون أن " عـــبد الله بـــن أبى " قد بلغ الذروة فى النفاق ، وأن ســـلوكياته لا تلـــيق بـــرجل كـــريم ، فكانوا يعنقونه ، ويزدرونه ، ويحتقرون تصرفاته ..!

وقال الرسول الكريم لعمر بن الخطاب وهو يرى موقف الناس من هذا المنافق :

كيف ترى الآن يا عمر ؟

أمـــا والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت له انف لو أرثها اليوم لقتلته " ، فقال عمر :

- قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من امرئ .

يقـــول الدكتور عبد الرحمن عميرة فى كتابة رجال ونساء انزل الله فيهم قرآناً) :

" ... وبلـــغ الكـــتاب أجله ومات عبد الله بن أبى .. مات زعيم المنافقين ، وجاء ابنة إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلامه فقال : اعطـــنى قميصـــك حتى أكفنه فيه وصل عليه واستغفر له . فأعطاه قميصه ثم قال :

آذنى أن أصلى عليه فآذنه .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فأى وقف عليه تحولت حـــتى قمت فى صدره فقلت : يا رسول الله .. أعلى عدو الله عبد الله ابـــن أبـــى القائل يوم كذا .. وكذا : أعدد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال آخِّر عنى يا عمر ، إنى خـــيرت فاخـــترت .. فقد قيل لى : استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم .. لو أنى أعلم أنى أن زدت على السبعين غفر له لزدت .

قـــال : ثم صلى عليه السلام ومشى إلى أن وصل إلى قبره فقام على قبره حتى فرغ منه .

قـــال : فعجـــبـــت لى وجرأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم ، فو الله ما كان يسيرا حتى نزل :

ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره " .

قال : فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى .

قال المفسرون : وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فيما فعل بعد بن أبى فقال :

وما يغنى عنه قميصى وصلاتى من الله . والله أنى كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه .


الفصل الثـاني
النبى عليه الصلاة
والسـلام واليهـود

يهـود بنو قنيقـاع

عـــندما هاجـــر النبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، وضع وثيقة سياسية أمَّن أهل المدينة كلها بكل طوائفها على أنفسهم وأموالهم ومعـــتقداتهم بما فيهم اليهود .. وهذه الوثيقة كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل تقرر حرية العقيدة وحرية الرأى وحرمة المدينة وحرمة المـــال وتحـــريم الجريمة ، هى فتح جديد فى الحياة السياسية والحياة المدنية فى عالم يومئذ ، هذا العالم الذى كانت تعبث به يد الاستبداد ، وتعبث فيه يد الظلم فساداً ، ولئن لم يشترك فى توقيع هذه الوثيقة من اليهود بنو قريظة وبنو النضير وبنو قنيقاع إنهم ما لبثوا بعد قليل أن وقعـــوا بيـــنهم وبيـــن النـــبى صحفاً مثلها ، وكذلك أصبحت المدينة ومـــا وراءهمـــا حرما لأهلها ، عليهم أن ينضحوا عنها ويدفعوا كل عاديـــة عليها ، وأن يتكافلوا فيما بينهم لاحترام ما قررت هذه الوثيقة فيها من الحقوق ومن صور الحرية " .

لقد اطمأن اليهود أول الأمر للنبى عليه الصلاة والسلام وطمعوا أن يكـــون نصــــــيراً لهـــم خاصة أنه كان يتجه فى صلاته إلى بيت المقدس ، ولكنهم سرعان ما رأوا نفوذه يتزايد فى المدينة ، وأن عدداً كبيراً من أهل المدينة قد دخل الإسلام ، ولم يبق إلا عدد قليل مما ظل علـــى وثنيـــته وبعض المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى بن أبى ســـلول .. كمـــا رأى الـــيهود أن الرسول سوف يتجاوز دعوته مكة

والمديـــنة إلى شبه الجزيزة العربية كلها ، وأن الإسلام دعوة عالمية سوف يمتد نفوذها إلى خارج الجزيرة العربية إلى العالم أجمع ، وان سلطان الرسول الروحى يمتد ، هنا أكلت قلوبهم الغيرة والحسد خوفاً على أنفسهم وخاصة أن أحد كبار أحبارهم وعلمائهم وهو عبد الله بن سلام دخل فى الإسلام هو وأهل بيته ..

ولأن عــبدْ الله بن سلام كان على علم بمكر اليهود ، فقد طلب من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يسأل عنه اليهود قبل أن يعلموا بإسلامه .. فما كان منهم إلا أن قالوا عنه : سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا ولكنهم عندما علموا بإسلامه طعنوا فيه !!

وبــدأ الــيهود يديــرون ظهورهــم للدعوة الإسلامية ، وبدأوا يحـــاولون تشــكيك المسلمين فى دينهم ، وحاولوا الوقيعة بين الأوس والخزرج ، بعد أن وحدَّهم الإسلام ، ولكن وجود النبى عليه الصلاة والســلام بيـــنهم كان يحول بينهم وبين تحقيق هدفهم من الوقيعة بين الأوس والخزرج .. فقد حاولوا ذات مرة أن يذكروا الأوس والخزرج بمـــا كـــان بينهم من عداوات وأحقاد وحروب ، حتى أنهم كادوا أن يحققــوا هدفهــم بــأن يفاخر كل من الأوس والخزرج عن أنفسهم ، وكادت تقوم فتنة وكادت ترتفع السيوف من أغمادها ، إلا أن الرسول أخمد هذه الفتنة وذكر الأوس والخزرج بنعمة الإسلام عليهم ..

ولـــم يكـــتف الـــيهود بمحاولة الوقيعة بين الأوس والخزرج ، فحـــاولوا الوقـــيعة بيـــن المهاجرين والأنصار ، ثم بلغ بهم الصلف والجهـــل حداً بأن حاولوا فتنة النبى نفسه ، فكانوا يسألونه مثلاً : إذا كان الله هو خالق الكون فمن هو خالق الله ؟

وكـــان الرســـول يـــرد عليهم بقوله تعالى : قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وجـــن جـــنونهـــم عندما أمر الله نبيه أن يتجه فى صلاته إلى الكعـــبة .. إنهم كانوا يحاولون أن يجعلوا النبى عليه الصلاة والسلام يـــترك المديـــنة إلى القدس ، حيث هى القبلة ، فلما تغيرت القبلة إلى بيـــت الله الحرام لم يجدوا ذريعة يتحدثون فيها للنبى عن ترك المدينة إلى القدس :

قـــد نـــرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره .

(البقـــرة ١٤٤)

أخذوا يمكرون من جديد ، ويحاولون فتنة الرسول عليه الصلاة والســـلام ، ويطلـــبـــون منه أن يعود إلى القبلة التى كان عليها حتى يتبعونه ، فنزل قوله تعالى : " سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلـــتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صـــراط مســـــتقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الـــناس ويكـــون الرســـول عليكم شهيدا ، وما جعلنا القبلة التى كنت علـــيها إلا لـــنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله " .

(البقرة ١٤٢ ، ١٤٣)

حزّ فى نفوس اليهود القوة الإسلامية الصاعدة ، وخشوا منها .

وكانت عشائر اليهود فى المدينة هم بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبـــنو قريظة .. وكان هؤلاء اليهود أقدم عهداً فى القدوم من المدينة مـــن الأوس والخزرج ، فالأوس والخزرج جاءا من اليمن بعد انهيار ســـد مـــأرب ، وسكنا يثرب ، وتكاثر عددهم حتى أصبحوا أكثر من اليهود إلا أن اليهود كانوا يملكون بأيديهم سلاح الثروة والقوة وأمور التجارة ، فهم تجار الذهب وهم أيضاً تجار السلاح أى كانوا يمتلكون الأبار والبساتين ، بجانب تعاملهم بالربا .!!

فلـــم يكـــن ظهـــور الإســـلام فى صالحهم ، فأظهروا البغضاء للرسول وأصحابه ، ولم يجد معهم أن الرسول عرض عليهم السلام ، وأمـــنهم على حياتهم ومعتقداتهم ، فقد كان الحقد على الإسلام ونبى الإسلام سمة من سماتهم .. ولعل ما قالته " صفية بنت حيى " بعد أن تزوجـــت الرســـول عليه الصلاة والسلام ، وهى تتذكر فى طفولتها الحـــوار الـــذى دار بيـــن أبيها وعمها يوضح كم كان اليهود يمقتون الرسول :

قالت صفية بنت حيى :

كنـــت أحـــب أولاد أبـــى إليه وهو سيد بنى النضير ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ، ونزل بقباء ، غدا عليه أبـــى وعمى ، مبكرين ، فلم يعودا إلينا إلا مع غروب الشمس ، فأتيا فاترين كسلانين ، ساقطين ، يمشيان الهوينى .

قالـــت صفية : فهششت لهما كما كنت أصنع ! فو الله ما التفت إلى واحد منهما ، مما بهما من الغم !

وسمعت عمى يقول لأبى : أهو هو ؟!

ويقول أبى : نعم

قال عمى : أعرفته وأثبتته ؟!

فقالى أبى : نعم

فقال عمى : فما أنت صانع ؟

قال أبى : عداوته إلى الأبد !

أى أن حيي وأخاه كانا يعرفان أنه النبى المرسل بآخر رسالات الله ، ومـــع ذلـــك فقـــد قرروا أن يحاربوه إلى الأبد ! .. لأنهم كانوا يريدون أن يكون النبى الخاتم منهم !

ولقـــد حاولوا تعجيز رسول الله بأن يسألوه عن أمور مثل قيام الساعة والروح ، ولكن الوحى كان ينزل بما يحيط نياتهم الخبيثة .

سألوه يوما متى تقوم الساعة (يوم القيامة) ؟

فنزل قوله تعالى :

يسألونك عن الساعة أيان مرســـاها . قل إنما علمها عند ربى ، لا يجلـــيها لوقتها إلا هـــو ، ثقلت فى السماوات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغته ..." . (الأعراف ١٨٧)

وسألوه عن الروح فنزل قوله تعالى :

(ويســـألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) . (الإسراء ٨٥)

وسألوه عن ذى القرنين فنزل قوله تعالى :

ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً .

إنـــا مكنا له فى الأرض ، وأتيناه من كل شئ سببا ، فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئه ووجد عندها قوما ، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب ، وإما تتخذ فيهم حسنا . قال أما مـــن ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمـــن وعمل صالحاً فله جزاءً الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا . ثم أتبع سببا ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس .. " . (الكهف ٨٣ – ٩٠)

وهكذا كشف الرسول غيظ قلوبهم ، وسوء مكرهم وطويتهم ... ولكنهم لا ينتهون .. ولا يكفون عن مكائدهم ، وكان لابد للإسلام أن ينطلق ، وكان لابد من دين التوحيد أن ينشر أنواره على الدنيا كلها .

وكان لابد أن يظهر الحق ويختفى الباطل .. بأن يقوم المسلمون بالدفـــاع عن أنفسهم ، ويحافظون على دينهم وعرضهم وممتلكاتهم ، فشرع الجهاد ، ونزل قوله تعالى .

أُذن للذيـــن يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله .

(الحج ٣٩)

وقولـــه تعالى : " وقـــاتلـــوا فى ســـبيل الله الذين يقـــاتلونكم ، ولا تعـــتدوا ، إن الله لا يحـــب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل " .

(البقرة ١٩١)

وقوله تعالى :

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ". (البقرة ١٩١)

وكانــت أول معــركة بين المســلمين وبين قريش هى معركة (بدر) .. حيث انتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الباغية .كانت هذه المعــركة الفاصلة فى يوم الجمعة السابع عشر من رمضان فى السنة الثانية للهجرة .. لقد قتل فى هذه المعركة أبو جهل ، وأمية بن خلف، وعدد كبير من زعماء مكة .

وعاد الرسول من هذه المعركة منتصراً .. ولكن اليهود غاظهم هــذا النصـــر .. وكـــانوا يتمنون أن يهزم الرسول فى هذه المعركة وينـــتهى أمره ، ويرتاحون من هم التفكير فى هذة الدعوة التى أرقت حياتهم .

وكـــان أشد الناس حقداً وحسداً على الرسول يهود بنو قينقاع ، وقد غرَّهم أنهم يملكون المال والسلاح والقلاع ، فأخذوا يهزأون بهذا النصر ، ويظهرون عداوتهم صراحة للإسلام ونبى الإسلام ، وأخذوا يبدون أسفهم لمقتل سادة مكة ، ونفضوا عهدهم للرسول كما جاء فى الصحيفة ، بل قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم :

يا محمد أرايتنا مثل قومك ؟ لا يغرنك أن لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة !

إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس !!

ونزل قوله تعالى على نبيه الكريم :

وإما تخــافن من قــوم خــيانة فأنبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين " . (الأنفال ٥٨)

عــرف الرسول ما يبيتون .. وخاصة عندما اعتدوا على امرأة مســلمة فى سوق اليهود .. وانسحبوا إلى حصونهم .. وكان لابد أن يحاربهم الرسول ، ليدركوا أن كلمة الله هى العليا ، وأن هذه الحصون لــن تغنى عنهم شيئا .. وحاصرهم الرسول خمسة وعشرين يوماً .. ولــم يســتطع حلفــاؤهم مساعدتهم .. من أمثال المنافق عبد الله بن أبــى .. وأدرك اليهود أنهم لن يستطيعوا كسر الحصار ، وقرروا أن يفاوضــوا الرســول وأن يــتركوا المديــنة ، ويأخذوا معهم أولادهم وممــتلكاتهم للرسول ، بشرط أن ينجوا بأنفسهم .. وأن يأخذوا معهم بعض المال والمتاع .

وقبل الرسول ما أبداه اليهود من رغبة فى الخروج من المدينة ، وتــرك كل ما يملكون .. وأشــرف على جلائهم من المدينة (عبادة ابــن الصــامت) .. خرجوا منها إلى (أذرعات) بالشام .. وهناك أصيبوا بالمرض .. وانتهت أسطورة بنو قينقاع !

وقــد كان هذا الجلاء فى منتصف شهر شوال من السنة الثانية من الهجرة .

أرادت قــريش أن تنتقم من هزيمة أحد وكونت جيشاً من ثلاثة آلاف رجل ، فيهم مائتا فارس ، وسبعمائة من حملة الدروع ، وقرر النــبى مجابهــة قريش ، وطلب من أصحابه الذين يرمون النبال أن يتحصــنوا فــى أماكــنهم ولا يتركون هذه الأماكن مهما كانت نتائج المعركة .. وكانوا على جبل أحد .

ولكن ما كادت تبدأ المعركة ، وتلوح بشائر النصر حتى خالف الرماة أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام ، نزلوا إلى أرض المعركة بحــثاً عــن الغنائم ، وكانت فرصة انتهزها خالد بن الوليد بأن هاجم المســلمين ، وتســاقط عدد كبير من الشهداء ، ولكن صمود الرسول وصحابته فى المعركة ، جعل قريش تخاف الهزيمة ، بعد الانتصار ، فقــرروا الانســحاب قبل أن يلتقط المسلمون أنفاسهم خاصة بهد أن فشــلت خطــة أبــو ســفيان ، بأن يفرق بين الأنصار ويبعدهم عن المعركة بقوله :

يــا معشــر الأوس والخــزرج ، خلــوا بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم .

ولكــن الأنصار قرروا الصمود والوقوف بجانب المهاجرين .. ورغــم قـــوة المعركة ، فإن الدائرة كادت تدور على المشركين ، خاصـــة بعد أن علم الصحابة أن الرسول ما زال حياً ، وأن أصحابه

يدافعــون عنه دفاع المستميت .. فانسحب المشركون ورجع الرسول وأصحابه إلى المدينة ..!

وقــد فــرح اليهود بما حدث للنبى وأصحابه فى (أحد) كذلك فرح المنافقون .

ولكن الرسول الكريم كان صابراً ، وكان يستعد لمجابهة كل من تسول له نفسه التعرض للمسلمين ، خاصة بعد أن تجرأ الأعراب على المدينة وظنوا أن المسلمين أصبحوا ضعفاء بعد معركة أحد .

وذات يــوم ذهب الرسول ومعه بعض صحبه إلى يهود (بنى النضير) ليستعين بهم على دية قتيلين – تبعا لما نصت عليه الصحيفة بيــن المسلمين وسكان المدينة .. وكان هذان القتيلان قد قتلا خطأ ، وطلب أهلهما الدّية ، ولم يكن فى وسع أحد من المهاجرين المساعدة بعد أن تركوا أموالهم فى مكة وهاجروا إلى المدينة .. ومن هنا قصد النــبى إلى يهود بنى النضير الذين يملكون المال ، ولديهم الثروات ، وكـــان معـــه أبو بكر وعمر وعلى ، وطلب اليهود من الرسول فترة يتفاوضـــون فيها مع أنفسهم ويتشاورون حول هذه المسألة .. وبينما كـــان الـــيهود يتشاورون رفض أحدهم أن يدفع أى أموال وطلب من اليهود عدم دفع الأموال التى تقوى مركز الرسول ، بل أنه قال لليهود أنـــه سوف يتسلق الجدار حيث يجلس الرسول وأصحابه ويلقى عليه حجراً يرديه قتيلاً !

كـــان هذا اليهودى اسمه (عمرو بن جحاشى) وصعد الرجل ليلقى بالحجر على الرسول ، ولكن الله أوحى إلى رسوله أن ينسحب ويبتعد عن هذا الجدار ويعود إلى المدينة .

وعــرف الــيهود أن الرســول عرف بالمؤامرة ، وأنه سوف يحــاربهم ، وأنهــم لا قــبل لهم بمحاربة المسلمين ، بعد أن اكتشف الرسول ما اعتزموا عليه . وفى ذلك يقول الله تعالى :

" يــا أيهــا الذيــن أمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم " .   (المائدة ١١)

وبعث إليهم الرسول (محمد بن مسلمة) فقال لهم :

يقول لكم رسول الله أن أخرجوا من بلدى ، فلا تساكنونى بها ، وقــد هممتم بما هممتم به من الغدر . وقد أجلتكم عشر ليالى ، فمن رؤى بعد ذلك منكم ضربت عنقه " .

وأرســل إلــى يهود بنى النضير المنافق عبد الله بن أبى يطلب مــنهم الاســتمرار فى حياتهم ، ولايهبأوا لإنذار الرسول لهم ، وأنه ســوف يســاعدهم بــرجاله ، وشجع ذلك حيى بن أخطب ، فأرسل للرسول بأنه لن يترك المدينة .

وذهب النبى وحاصر حصونهم حصاراً شديداً ، حتى اضطروا إلــى التســليم بعد حصار دام ستة أيام ، وخرجوا بأولادهم ونسائهم وبعــض متاعهم على ستمائة بعير ، وتركوا السلاح ، واتجهوا نحو خيبر وكان ذلك فى السنة الرابعة من الهجرة .

وهكــذا عرف يهود بنى النضير ، أن ما حدث فى " أحداً " لم يوهــن مــن شــجاعة المسلمين ، وأنهم قد استعادوا قوتهم .. وأنهم يســتعدون لمجابهات جديدة مع قريش ، ومع كل من تسول له نفسه الهجوم على الإسلام .

كما أخذ أعظم رسل الله يرسى قواعد وقيم الدين الحنيف ، بعد أن نـــزل مـــن آيـــات الله ، ما يحظر شرب الخمر ، وكان ذلك على مراحل ، حتى حرمت نهائيا .. قال تعالى :

" يـــا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون .

" إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة . فهل أنتم منتهون " .

(المائدة ٩٠ – ٩١)

ولكـــن يهـــود بـــنى النضير لم ينسوا للنبى أنه طردهم ، وأنهم تشـــردوا فـــيما بين خيبر وبلاد الشام ، فكانوا ينتهزون الفرص تلو الفـــرص للانتقام من النبى بإشعال الفتن والمؤامرات ، فأخذوا يألبون يهـــود بنى قريظة على النبى ، كما استطاعوا أن يألبوا قريشاً وبعض القـــبائل العربـــية ، حتى تغزو المدينة ، وقد تحقق ذلك عندما ذهبت قـــريش وبعض حلفائها لمحاصرة المدينة فى غزوة الأحزاب ، بينما كـــان يهود بنى قريظة فى المدينة يتآمرون على الرسول فى الداخل بينما الأحزاب تحاصر المدينة .

بنو قريظـــة

لقد استطاع اليهود تأليب القبائل العربية على الإسلام ، وأظهروا حقدهـــم الدفين على نبى الإسلام ، فإذا بقريش تخرج فى أربعة آلاف فارس ومعهم ثلثمائة فرس وألف بعير .

وخرجت معها عظفان فى ألف فارس .

وخــــرج معها أيضاً (بنو سليم) فى سبعمائة فارس ، بجانب ما خرج من بنى مرة ، وبنى أسد ، وبنى أشجع وغيرهم .

وكان من الطبيعى أن يعرف الرسول بمن يتربص به ويدور به الدوائر ، وأن يستعد لهذا الذى يدبر له ، بجانب أن يهود بنى قريظة قد تألبوا عليه وهو فى هذه الظروف الصعبة .

وأشـــار سلمان الفارسى على الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحفر خندقاً حول المدينة يحميها من غزو الغزاة ، واستحسن الرسول الفكـــرة ، وأمر أصحابه بحفر الخندق ، وعمل معهم .. فى جو بالغ البرودة .

والغريـــب أنـــه فـــى هذه الظروف الصعبة ، اعترضت إحدى الصـــخور المســـلمين ، فـــنزل الرســـول إلى الخندق ومعه سلمان الفارســـى . وأخـــذ بيده المعول وضرب الصخرة ضربة سطع منها

مـــا يشبه البرق ثم ضربها الثانية فكسرها وأبرقت ، وضربها الثالثة فانهارت وأبرقت وأضاءت المكان وسأل سلمان الرسول :

ما هذا الذى رأيت وأنت تضرب الصخرة بالمعول ؟

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ضـــربت ضربتى الأولى فأضاءت لى قصور الحيرة ، ومدائن كسرى ، فأخبرنى جبريل : أن أمتى ظاهرة عليها .

وضربت ضربتى الثانية فأضاءت لى القصور الحمر من أرض الروم . فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها " .

وســـط هذه الظروف الصعبة .. يحدثهم الرسول بنبوءة تحققت بـــالفعل فيما بعد .. أن أمته ستنتصر على الفرس والروم ويدخل فى نطاق الإسلام بجانب الفرس والروم اليمن .

المـــنافقون تعجبوا من هذا الحديث حول الانتصار على الفرس والروم بينما الحصار على وشك أن يخنق المدينة .. فقالوا ما وعدنا إلا غـــرورا ! والـــبعض الآخر حاول أن يجد ذريعة ليهرب بها من الحرب ويعودوا إلى بيوتهم بحجة خشيتهم على بيوتهم من اليهود .

ويصور القرآن الكريم هذا المشهد بقوله المعجز :

وإذ يقـــول المـــنافقون والذيـــن فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فـــارجعوا ، ويســـــتأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة ، وما هى بعورة ، إن يريدون إلا فراراً " . (الأحزاب ١٢ ، ١٣)

واستطاع المسلمون حفر الخندق فى ستة أيام وفوجئ الأعداء بهذا الخندق الذى لا عهد للعرب بمثله وذهلوا ، ثم حطوا رحالهم حول المدينة . وفى هذه الظروف حاول (حييى بن أخطب) أن يقنع سيد قريظة بخرق اتفاقه مع المسلمين ، ومساعدة الأحزاب ، على أساس أن هؤلاء الأحزاب سيمكنهم الانتصار على المسلمين ، ولكن سيد قريظة (كعب بن أسيد) كان يخشى من انتقام المسلمين فلم يسمع له أول الأمر ، إلا إنه أقنعه بضرورة الوقوف ضد النبى ومع قريش التى تقضى على الرسالة المحمدية بما جاءت به من جيوش ، وما ناصرها من قبائل وعرف المسلمون بمكائد اليهود .. وسمع الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك فأرسل إليهم سعد بن معاذ ، وسعد ابن عبادة ليعرف حقيقة الأمر ، وهل فعلاً خانوا أم أن ما يتداوله الناس مجرد إشاعات ولكن تيقن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة من غدر اليهود ، ولم يجد معهما نصحهما بالحفاظ على عهد الرسول وكان أعظم رسل الله واثق من ربه ، وواثق أن الله سبحانه وتعالى لن يخذله ، وأن هذه الأحزاب مصيرها الانسحاب والهزيمة ..

لقد قال الرسول لأصحابه :

" والذى نفسى بيده ، ليفرجنّ الله عنكم ما ترون من الشدة . وأنِّى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا . وان يدفع الله إلى مفاتيح الكعبة . وليهلكن الله كسرى وقيصر ، ولتنقصن كنوزهما فى سبيل الله " إن اليهود انتهزوا وجود المسلمين خلف الخندق للدفاع عن المدينة ، فأغروا شبابهم للسير فى المدينة لترويع النساء والأطفال ..

فمـــا كان من الرسول أن أرسل (زيد بن حارثة) فى ثلثمائة رجل ، وسلمة ابن اسلم ، فى مائتين ليحرسون المدينة من غدر اليهود .

وكانـــت اليهود قد اتفقت على فتح بيوتهم لأعداء الإسلام حتى يحاصروا المسلمين ويصبحوا بين اليهود ورجال الأحزاب ..

وفـــى وسط هذه الظروف البالغة القسوة ، رفع الرسول العظيم يده إلى الله داعياً :

" اللهم إنى أنشـــدك عهدك ووعدك .

" اللهم إنك إن تشأ لا تعبد " .

" اللهم أدفع عنا شرهم ، وانصرنا عليهم ، لا يغلبهم غيرك ".

وجاء إلى الرسول نعيم بن مسعود الأشجعى ، وأعلمه أنه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه .

فقال الرسول الكريم :

إنمـــا أنت فينا رجل واحد ، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة .

واستطاع نعيم أن يذهب إلى اليهود ويقنعهم أن يأخذ منهم رهنا مـــن أشرافهم حتى يضمنوا مقاتلتهم مع محمد حين تقوم الحرب بينه وبينهم .

وذهـــب إلـــى قـــريش ، وقال لأبى سفيان أن اليهود قد نقضوا عهدهـــم مع قريش ، وأنهم ندموا على تعاهدهم مع قريش ونصحهم

بأنـــه إذا جـــاءهم يهود يلتمسون رهناً من الرجال فلا تعطوهم رجلاً واحداً .

وذهـــب إلى غطفان وحذرهم ودارت المناقشات بين الأطراف المختلفة ، واختلفوا ووقعت بينهم الفتنة .

وفـــى لـــيلة بالغة البرودة هبت ريح عاصفة .. قلبت القدور ، وأطفـــأت النيران ، وألقـــت بخـــيام الأحزاب .. وأصبح الواحد منهم لا يرى الآخر من شدة الظلام مع برودة الجو ، مما اضطر الأحزاب إلى الانصراف ، والعودة إلى ديارهم .

ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً . (الأحزاب ٢٥)

وكان من الطبيعى أن يأخذ الرسول موقفاً حاسما من يهود بنى قريظة الذين خانوه ، وقال عقب صلاة الظهر فى المسجد :

مـــن كان يؤمن بالله واليوم الآخـــر فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة .

وأقـــبل على بن أبى طالب يحمل الراية وتبعه الناس ، واقترب مـــن حصـــون اليهود ، وأخذ (حيي بن أخطب) يهاجم نبى الإسلام بألفـــاظ بذيئة .. وعندما جاء النبى عليه الصلاة والسلام طلب على ألا يقترب من حصون اليهود ، وأنهم يســـبونه بأبشع الألفاظ . ولكن النبى قال لعلى :

ولو رأونى لما قالوا من ذلك شيئاً ودنا من حصونهم ونادى :

– يا إخوان القردة .. هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته !

قالوا :

يـــا أبا القاسم ما كنت جهولاً وطال حصار المسلمين لحصون اليهود .. حاصرهم المسلمون خمسا وعشرين ليلة .. مما استدعى من الـــيهود أن يبعث إليهم (أبو لبابة) لاستشارته .. وكان أبو لبابة هذا من الأوس حلفائهم .

وذهـــب (أبو لبابة) واستقبلته نساء اليهود والأطفال بالبكاء ، وسألوه عن رأيه فى الموقف ، فقال لهم .

– أرى النزول على حكم رسول الله .

وأشار بالنزول على حكم رسول الله .

وأشـــار إشـــارة بيده على حلقه ، بمعنى أنه سيذبحهم .. ولكن أبا لبابة شعر أنه خان الأمانة ، وما كان له أن يقول لليهود ما قال ، فـــرجع إلى مسجد رسول الله فربط نفسه فى أحد أعمدته ، وأضرب عن الطعام والشراب !

وكـــادت تحدث فتنة فالأوس كانت تأمل أن يكتفى بجلائهم عن المدينة كاليهود من قبل بينما كانت الخزرج يرون أنهم يستحقون القتل لخيانـــتهم الرسول وانضمامهم لأعداء الإسلام .. وكادت تحدث فتنة بين الأوس والخزرج ، ولكن حسم الأمر بأن سأل " الأوس " أن يحكم فى هذه القضية رجل منهم وهو سعد بن معاذ فقبلوا .. وكان سعد قد

نصـــحهم من قبل ألا يخونوا العهد مع الرسول أثناء تحالفهم مع مكة ولكنهم أصموا آذانهم .. وها هو اليوم يحكم بينهم .. وكان جريحًا من سهم إصابة أثناء غزوة الخندق ..

وحكم سعد بأن تقتل الرجال ، وتســبى الذرارى والنساء وتقسم الأموال بين المسلمين .

وقال له الرسول عليه الصلاة والسلام .

لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات أى أنه اســتند إلى حكم التوراة ..

ففـــى الاصـــحاح العشرين من تثنية سفر الاشتراع جاء : حين تقــترب مــن مديــنة كى تحاربها استدعها للصلح ، فإن أجابتك إلى الصــلح ، وفتحــت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك مسخراً مســـتعبداً ، وإن لــم تسالمك وحاربتك ، وحاصرتها ، وسقطت فى يــدك ، فاضـــرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والأموال فهى لك غنائم " .

لقــد وفــق سعد باجتهاده الشخصى أن يكون هذا الاجتهاد وفق ما جاءت به فى التوراة .

ونفذ الحكم فيهم ..

" وأنـــزل الذيـــن ظاهـــروهم من أهـــل الكتاب من صياصيهم وقـــذف فى قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم

أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شئ قديراً ". (الأحزاب ٢٧)

ومات سعد بن معاذ متأثراً بجراحه .

وقال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم :

إن الملائكة تحمله معكم ، فلقد نزل منهم فى جنازة سعد سبعون ألفاً وطئوا الأرض قبل ذلك .

وكـــان الناس وهم يشيعونه إلى مثواه الأخير لا يشعرون بحمله رغم أنه كان طويلاً جسيماً .

قالت عائشة :

قلت لأم سعد :

أخبريـــنى بـــالله عن خصاله التى جعلت منه حبيباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

قالت : سمعت سعداً يقول :

ثلاث خصال أنا فيهن كما ينبغى ، وما سوى ذلك فأنا رجل من الناس .

فقلت له : وما تلك الخصال الثلاث ؟

قال سعد :

مـــا ســـمعت من رســـول الله صلى الله عليه وســـلم حديثاً قط إلا علمت أنه حق من الله .

ولا كنت فى جنازة قط فحدثت نفسى فيها بأمر من أمور الدنيا حتى انصرف عنها " .

قالت عائشة :

وأى إنسان يستطيع ذلك غير الصالحين .

والحديـــث عمـــا حدث ليهود بنى قريظة يستد عيناً أن تعرف مصير أبى لبابة الذى صام عن الطعام والشراب ، فقد ظل كذلك ست ليالٍ إلى أن نزل قوله تعالى :

وآخـــرون اعـــترفوا بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . (التوبة ١٠٢)

وبالطـــبع قـــد يتساءل البعض عن الحكم الذى حكم به سعد بن معاذ على اليهود ، وقســـوة هذا الحكم .

والإجابـــة أن سعداً حكم بما يتوافق مع التوراة فى الحكم على الخائنين .

وقد أعجبنى تعليق د. محمد حسين هيكل على هذه الحادثة ، بأن جعل لها عنواناً (دم بنى قريظة فى عنق حيى بن أخطب) .. فقال :

وفـــى رأينا أن دم بنى قريظة معلق فى عنق حييى بن أخطب وإن كـــان قد قتل معهم ، فهو قد حنث فى العهد الذى عاهد قومه بنى النضير حين أجلاهم محمد عن المدينة ولم يقتل منهم بعد النزول على حكمـــه أحداً ، وهو بتأليبه قريشاً وغطفان وتخريبه العرب كلها لقتال

محمد قد حسم العداوة بين اليهود والمسلمين ، وجعل هؤلاء يعتقدون أن بــنى إســرائيل لا تطيب نفوسهم إلا باستئصال محمد وأصحابه ، وهو الذى حمل بنى قريظة من بعد ذلك على نقض عهدها والخروج مــن حــيادها ، ولو أنها بقيت عليه لما أصابها من الشر شئ . وهو الــذى دخل حصن بنى قريظة بعد ارتحال الأحزاب ودعاهم لمواجهة المســلمين والدفــاع عن أنفسهم بمقاتلتهم . ولو أنهم نزلوا على حكم محمــد مــنذ اليوم الاول ، واعترفوا بخطئهم فى نقض عهدهم ، لما أهدرت دماؤهم ، وضربت أعناقهم ، ولكن العداوة بلغت من التأصل فى نفس حيبى وانتقلت منه إلى نفوس بنى قريظة حداً جعل من سعد بن معاذ نفسه وهو حليفهم ، يؤمن بأنهم إن أبقى على حياتهم لم تهدأ لهم نفس حتى يؤليوا الأحزاب من جديد ، وحتى يجمعوا العرب لقتال المســلمين ، وحتى يقتلوهم عن آخرهم إن ظفروا بهم . فالحكم الذى أصــدره على قسوته إنما أصدره متأثراً بالدفاع عن النفس ، معتبراً بقــاء الــيهود أو زوالهــم مســألة حياة أو موت بالنسبة للمسلمين . وبالقضاء على يهود بنى قريظة ، لم يرتفع صوت بعد ذلك لمنافق .. وتفــــرغ النــبى لدعوته .. باعتباره أن الإســلام دعــوة عالمية .. جاء للبشــر كافة .. لا لمكة أو المدينة أو شبه الجزيرة العربية ، بل أن رســالته للعــالم كله .. وان عليه أن ينشر هذه الدعوة بين ربوع البشــر ، حتى تغزو العقول والقلوب ، وتمــد أضواءها عبر قارات الدنيا كلها .

غـزوة خـيبر

بعـد هجـرة النـبى عليه الصلاة والسلام إلى المدينة ، فرض الجهـاد ، وأصبح لزاما على النبى وصحابته مجابهة المتربصين بهم وبـالدعوة الإسلامية .. فكانت الغزوات المختلفة التى خاضها أعظم رسل السماء ضد مؤامرات المشركين واليهود ..

وكانـت هذه الانتصارات التى أحرزها الرسول الكريم الطريق إلـى نشـر الإسـلام وقيمه ومبادئه ، حتي عم الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها فى عهد الرسول ، وكان تمهيداً للفتوحات العربية الكبرى الـتى حطمت الإمبراطورية الفارسية ، وأنهكت قوى الإمبراطورية الرومانـية .. وانتشـر الإسلام فى مختلف أرجاء الدنيا ووصل مده الحضارى إلى أماكن لم تكن تخطر على بال ..

بعـد جلاء اليهود عن المدينة .. شعر المسلمون بقوتهم ، وإن بإمكـانهم ممارسـة شعائر دينهم بلا خوف من مؤامرات أو أهواء اليهود ، فقد تطهرت المدينة من رجسهم ومكرهم وقد بلغ من سخف هـؤلاء اليهود أنهم حاولوا مرة أن يستميلوا الرسول إليهم بشرط أن يحكم فى صالحهم وكأنهم بذلك يريدونه أن يميل عن العدل ..

قـالوا له : يا محمد إنك قد عرفت إنا أحبار يهود وأشرافهم وسـادتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعك يهود ولم يخالفونا ، وإنا بيننا وبين بعض قومنا خصومة ، أفنحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم ، ونؤمن بك ونصدقك ؟

فنزل قوله تعالى :

(وإن أحكم بينهم بما انزل الله ، ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فأعلم إنما يريد الله أن يصـــيبهم بـــبعض ذنوبهـــم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) .

(المائدة ٤٩ ، ٥٠)

لقد أرتاح المسلمون من شرور هؤلاء اليهود وفى العام السادس من الهجرة فرض الحج " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه ســبيلا " وأراد النبى الحج وأصحابه .. مع علمه بالعداوة التى تكنها قريش له وللمسلمين .. أراد النبى أن يدخل مكة حاجاً مع أصحابه .. عارضـــاً السلام .. فهو لم يذهب إلى مكة محارباً بل ملتمساً بيت الله الحـــرام ، وخــــرج عليه الصلاة والسلام مع أصحابه فى أول ذى القعــدة ، فى ألف وأربعمائة مسلم ، ليس معه من السلاح إلا السيوف وســاقوا معهم من الهدى سبعين بدنه ، وقلدوها بقلائد وعلامات حتى يعرف الجميع أنهم ذاهبون للحج وليس تحرشاً بمكة وركب النبى ناقته القصواء متجهاً نحو مكة .. وهم يقولون :

" لبــيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك " ..

وما كادت مكة تعلم بذلك حتى استقر رأيها على منع المسلمين مـــن الحـــج .. وكان النبى حريصاً على أن يتجنب القتال فى الأشهر الحرم ..

ووصـــل الرسول إلى الحديبية ، وهناك كانت المفاوضات بين الرســـول ورســـل أهل مكة ، وانتهت المفاوضات بأن اتفق الرسول وسهيل بن عمرو على :

" أن يرجع محمد والمسلمون من دخولهم مكة فى عامهم هذا ، وأن يعـــودوا إلـــيها فى عام قابل ، فتخلى لهم قريش مكة ثلاثة أيام يـــؤدون فـــيها العمرة ، وأن تعقد بين الطرفين (هدنة) مدتها سنتان علـــى الأرجح ، يأمن فيها كلا الطرفين صاحبه ، ويكف بعضهم عن بعض ..

وأن مـــن أراد من قبائل العرب الدخـــول فى حلف محمد دخل فيه ، ومن أراد الدخول فى حلف قريش دخل فيه ، وأن من جاء مع محمد من أهل مكة بدون إذن وليه رده إليه ، ومن جاء إلى قريش من أصحاب محمد لم يردوه إليه " ..

وقـــد أثبتـــت الأيـــــام بعد ذلك بعد نظر الرسول عليه الصلاة والسلام ، رغم اعتراض بعض المسلمين على هذه الاتفاقية ، إلى أن نزلت سورة الفتح :

" إنـــا فتحـــنا لـــك فتحاً مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً " ..

ولكـــن يهود خيبر فى الشمال قد هالهم هذا الصلح ، بين النبى ومكـــة فقد أمن الرسول مكة بحكم صلح الحديبية وخافوا على أنفسهم فوحـــدوا صـــفوفهم بيـــن خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء وقرروا

مهاجمـــة الرسول في المدينة وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم بما عـــزم عليه اليهود .. وقرر أن يهاجمهم قبل أن يهاجموه ، وقرر أن يكون جيشه هم الذين حضروا بيعة الرضوان ، وخرج الرسول الكريم بجيشه الذى يضم ألف وأربعمائة رجل منهم مائتا فارس .. وكان عدد أعدائهم من اليهود عشرة آلاف ..

كانت المسافة بين خيبر والمدينة حوالى مائة ميل كان ذلك فى شهر المحرم من السنة السابعة للهجرة وصحب النبى فى هذه الغزوة مـــن زوجاته (أم سلمة) وسار النبى ثلاث ليال ، حتى يفاجئ العدو قبل أن يستعد .

وفـــى الليلة الثالثة وصل النبى وأصحابه فى (وادى الرجيع) قريباً من خيبر ..

قال أنس بن مالك :

" كان النبى إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإذا لم يسمع أذاناً أغار " .

فنزلـــنا (خيـــبر) ليلاً ، فبات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا أصبح لم يسمع آذاناً فركب وركبنا معه " .

واســـتقبلنا عمال (خيبر) بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا النبى والجيش قالوا :

محمد والخميس (الجيش) ..

فأدبروا هرابا .

فصاح النبى فى أعقابهم مكبراً ليزيد فى فزعهم :

" الله أكبر خربت خيبر .. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين " .

وأخـــذ المســلمون يكــبرون كمــا كبر الرسول ، ويرفعون أصواتهم ، يقولون : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم :

أربعــوا علــى أنفسكم ، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تسمعون سميعا قريباً وهو معكم ..

ولمــا أشــــرف علــى خــيبر ، وشــاهد حصونها رفع يديه بالدعاء وقال :

" اللهــم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشــياطين ومــا أضللن ، فإنا نســألك خير هذه القرية وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها .. أقدموا باسم الله " .

كانــت خيبر واحة بها الكثير من الحصون ، فاعتصموا بها ، وحاصــرهم النــبى ، ولكنهم ظلوا فى هذه الحصون ، فعندهم المؤن الكثيرة ، وهم يخافون من محاربة المسلمين على أرض مكشوفة ، فما كــان مــن النبى أن قرر محاربتهم داخل حصونهم .. وحاصر النبى أول حصــونهم (حصن الناعــم) .. وظل الحصـــار أسبوعياً دون أن يسقط هذا الحصن ، وكان النبى يشــكو الصــداع فأعطى الراية أبــا بكر ، ثم عمر بن الخطاب ، ثم أعطى الراية عليا بن أبى طالب

الــذى قــاتل قــتالاً شرســا مع أصحابه ، وتصدى له فارس اليهود (مرحب) الذى طلب من على المبارزة وقال مرحب :

قد علمت خيبر إنى مرحب

شاكى السلاح بطل مجرب

أطعن أحيانا وحينا أضرب

إذا الليوث أقبلت تلهب

رد على :

أنا الذى أسمتنى أمى حــيدرة

ليث بغابات شــديد قســورة

أكيدكم بالسيف كيد الســندرة

وضرب مرحب علياً ضربة قوية طرحت بترسه ..

وتــناول علــى بابــا بجوار الحصن قاتل به ، وضرب مرحبا ضربة قوية قتلته وسقط الحصن ..

واحتل المسلمون بعدها حصنا آخر (الصعب) .. وكان فى هذا الحصن الكثير من الطعام والمؤن وتساقطت حصون اليهود حصنا بعد حصــن نتيجة الهجوم الشرس من المسلمين ، والاستبسال فى القتال بغية النصر أو الشهادة حتى وصلوا إلى حصن يسمى (القموص) .. ففتحوه حيث كان فيه عدد من نساء اليهود ، وكان بينهن (صفية بنت حيى بن أخطب) .. التى أصبحت من أمهات المؤمنين ..

وتابع المسلمون زحفهم ، وحاصروا حصنى الوطيح والسلالم .. وقـاتلوا قـتالا شـديدا ، مما اضطر اليهود إلى الاستسلام ، وطلب زعـيمهم (كنانة بن الربيع) الاستسلام ، ومغادرة خيبر ، ويتركون للمسلمين ما لهم من اموال وسلاح ، على أن تحقن دماؤهم وتنزل لهم ذراريهم وأهليهم ورضى الرسول بما عرضه عليه كنانة وقال له :

" وبرئـت ذمـة الله ، وذمـة رسـوله إن كتمتونى شـيئاً من أموالكم ..

قالوا : نعم .

فصالحهم الرسـول عليه الصلاة والسلام على ذلك .

وعـرف الرسول أن اليهود قد اخفوا كنوز (حيى بن اخطب) وان الـذى أخفاها رجل منهم اسمه (كنانة) وكان زوجاً لصفية بنت حـيى .. وأنكـر (كنانة) أنه أخفى شيئا عن المسلمين ، ولكن أحد الأسـرى مـن الـيهود دل النبى على مكان الكنز الذى يضم بعض الجواهـر ، مما حدا بالرسول أن يأمر بقتل (كنانة) لغدره وخيانته وكذبه ..

وطلب اليهود أن يظلوا فى خيبر يقومون بالزراعة التى يجهلها أصـحاب الرسول على أن يكون للمسلمين نصف المحاصيل ووافق الرسول على ذلك على شرط أن يخرجهم من خيبر متى شاء ..

وغنم المسلمون من خيبر الكثير من الغنائم ..

ويـرى الإمام البخارى أن الرسول عندما رأى السبايا فى أيدى المسلمين خطبهم قائلاً فيما رواه البخارى :

" لا يحـــل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره (يبعدهم عن الحبالى من السبايا) .

" لا يحـــل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها " .

" لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فئ المسلمين حتى أذا أعجفها ردها " ..

" لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فى المسلمين حتى إذا أخلقه – أبلاه – رده فيه ..

وجعـــل النبى (ابن رواحه) أن يقسم المحصول بين المسلمين والـــيهود ، فكان يقوم بعمله بما يرضى الله ، ولكن اليهود حاولوا أن يرشوه حتى يزيد من أعطياتهم ، فقال لهم أبن رواحه :

يـــا أعداء الله تعطونى السحت ، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلى ولأنتم أبغض إلى من القردة والخنازير ولا يحملنى بغضى إياكم ، وحبى إياه على ألا أعدل بينكم " .

لم يطرد النبى يهود خيبر .

وعاملهم معاملة كريمة .

ومـــع ذلـــك لـــم ينج من غدرهم ، فقد قدمت له امرأة يهودية (زينب بنت الحارث) شاة مشوية ، بعد أن وضعت فيها السم ، على أنهـــا هدية منها وما كاد النبى يتذوقه حتى لفظه ، وأكل معه بشر بن البراء ، وأمر الرسول أصحابه بعدم الأكل من لحم هذه الشاه قائلاً :

إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ! ولفظ بشر أنفاسه .

وجــئ بــتلك المرأة اليهودية ، وسألها الرسول صلى الله عليه وسلم :

ما حملك على ذلك ؟

قالت :

لقد بلغت من قومى ما لم يخف عليك فقلت :

إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر .

وأمر النبى بالانتقام منها فأمر بقتلها بعد أن مات بشــر !

وكـــان من الطبيعى بعد سقوط خيبر ، وهزيمة اليهود أن يصل إلى أسماع الآخرين من اليهود ما حدث لخيبر ، فقرروا أن يتصالحوا مع النبى بنفس الشروط التى وقعت بينه وبين خيبر فعلت ذلك فدك ، ووادى القرى التى لم تصمد أمام حصار المسلمين ، كذلك فعلت تيماء فدفعت الجزية .

وبذلك أصبحت جميع القبائل اليهودية تحت سيطرة المسلمين ..

غــنم المسلمون فى هذه الغزوة غنائم ضخمة ، وتبدلت حياتهم إلى حياة ناعمة ..

لقد عادوا إلى المدينة فرحين مستبشرين بنصر الله وما آفاءه الله عليهم من غنائم .

أما صفية بنت حيى فقد قالت :

" مـــا رأيت أحداً قط أحسن خلقا من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد رأيته ليلة ركب من (خيبر) حين أفاء الله عليه على ناقته ليلا فجعلت انعس من التعب ، فيضرب رأس مؤخرة الرحل فيمسنى الرسول صلى الله عليه وسلم بيده . ويقول : يا هذه مهلاً يا ابنة حيى حتى إذا جاء الصهباء قال :

" أمـــا إنى اعتذر إليك يا (صفية) مما صنعت بقومك .. إنهم صنعوا بى .. كذا .. وكذا .

فقلت له :

والله يـــا رســـول الله مـــا كان من أحد أبغض إلى منك ، قتلت زوجـــى وأبـــى وما زلت تعتذر وتقول : إن أباك ألب على العرب ، وفعـــل كـــذا وكذا حتى ذهب ذلك من نفسى وأنت اليوم يا رسول الله أعز على من أبى وزوجى وأنا على دينك " .

وتقول لنا كتب السيرة كيف كانت صفية مخلصة لزوجها عليه الصـــلاة والســـــلام . فقد اتفقت السيدة عائشة والسيدة حفصة على صفية .. قالتا لها :

نحـــن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم وبنات عمه من قريش فنحن خير منك ، فمن تكونين أنت ؟

فبكت صفية وحكت للرسول ما حدث لها فقال لها عليه الصلاة والسلام

أمـــا قلـــت لهمـــا : وكيف تكونان خيرا منى ، ومحمد زوجى وهارون أبى ، وموسى عمى .

وهكذا استطاع المسلمون فى هذه الغزوة .. غزوة خيبر .. التى استغرقت حوالى الشهرين أن يدعموا موقف الإسلام ، وأن يصبح المسلمون قوة يهابها الجميع .. فالنصر حليفهم ، ورسول الله بينهم .. يعلمهم تعاليم السماء .. ويهتدون بهديه عليه الصلاة والسلام .. وأصبحت المدينة فى أزهى عصورها .. تزدهى بجمال اليقين ، وروعة الإيمان ، وقمة الانتصارات .. وأصبح المسلمون قوة تحسب لها مكة ومختلف القبائل العربية ألف حساب ..

و .. وأصل الإسلام انتصاراته الكاسحة ..

ومعروف أن الإسلام جاء للبشرية كافة ، وأنه اعترف بالرسل والأنبياء السابقين على دعوة الإسلام ، وعلى النقيض من ذلك فإن اليهود لم يعترفوا بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، ولم يعترفوا بنبوة المسيح عليه السلام ، وطعنوا فى مريم عليها السلام . وكان لابد أن يتم التصادم بين الإسلام واليهودية ، نتيجة غدر اليهود وعدم التزامهم بالمواثيق والمعاهدات ، مما اضطر الإسلام إلى محاربتهم وإجبارهم على النزوح إلى الشام والكوفة ، وهناك اتصلوا بغلاة الشيعة الذين جادلوهم وتأثروا بهم .

إلا أن اليهودية والإسلام تتفقان فى أشياء وتختلفان فى أشياء ، كما نرى فى كتاب التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار ، والدكتورة سعاد على عبد الرازق .. حيث تقرأ فيه :

أن اليهودية والإسلام تتفقان فى أنهما ناديا بالتوحيد فالقرآن نادى بالتوحيد ، وبنو إسرائيل قوم يؤمنون بالوحدانية ، ولكنهم

يختلفون عن توحيد القرآن بأنهم يصبغون التوحيد بالتشبيه ، ويغالون فـى هـذا التشـبية أشد غلو ، وهم يجسمون الإله الواحد ، والإسلام ينفى التجسيم . ويختلفان فى أن العهد القديم ، كتابهم المقدس لم يحاول أن يـربط الظواهـر الكونية فى وحدة فلسفية متسقة ، وإنما يصور حوادث الكون وكأنها خاضعة لقوة قهرية مادية مسيطرة ، ولا يمكن للعقل أن يتسامى إلى كنهها .

أما القرآن فإنه ربط الظواهر الكونية فى وحدة فلسفية متناسقة ، وحـدد ميـتافريقاه تحديدا كاملاً ، وإن كان يتفق مع اليهودية فى أن العقل لا يصل إلى معرفة كنه هذه القوة ، إلا أنه يستطيع أن ينفذ إلى خصائصها .. ويختلف الإسلام عن اليهودية فى صورة موسى ، فقد صورت التوراة موسى قائلاً جباراً يقتل من يشاء ويذبح من يشاء من غـير اليهود ، ولا تحركه إلا عاطفة اليهود ولا يتجه إلا إليهم ، أما قصـة موسى فى القرآن ففيها أجمل المعانى النفسية والروحية ، فقد وصـفه القرآن فى نسق الأنبياء الإنسانيين الذين تنبثق منهم أغنيات الـروح .. جعله الإسلام روحاً ، وجعله اليهود مادة .. جعله الإسلام نبـياً إنساناً ، وجعله اليهود نبياً صنما ، وقاتلا سفاحاً ، وحينما انتقل الـنزاع إلى أيدى المفسرين من اليهود والإسلاميين الذين حاولوا أن يخوضـوا فى قلب التوراة لكى يثبتوا من الدلالات والآيات ما يدل علـى أن محمدا وشريعته حقيقة لا جدال فيها ، فأعلنوا أن التوراة قد حرفت ويدل الكثير منها ، وعلى الرغم من ذلك فإن التوراة المحرفة هـذه تحـتوى على كثير من البشـارات الكبرى بظهور محمد عليه

الســـلام ، نبياً عربياً من ذرية إبراهيم ، وابنه إسماعيل ، فقد جاء فى التوراة :

وإجابـــة الـــرب إيـــاه .. إنـــى باركت على إسماعيل وأولاده وسأظهرهم على الأمم كلها ، وسأبعث فيهم رسولاً يتلو آياتى "

مهمـــا يكـــن من شئ فإننا فى هذا البحث القيم نرى كيف أفسد اليهود عقائد المسلمين ، وأن لعبد الله بن سبأ مؤسس السبئية أول فرق الغـــلاة فى الشيعة كان يهودياً قبل الإسلام ، كما ترجع أغلب الأفكار الشيعية الغالبة لفكرة الرجعة والبداء والمهدى إلى أصل يهودى .

ثانـــياً : نرى أن كثيراً من اليهود الذى اعتنقوا الإسلام ، قاموا بوضـــع أحاديـــث مـــنحولة مستمدة من التوراة ، وخاصة فى مسائل التشـــبية والتجســـيم وأحاديث الميعاد وأشراط الساعة وقد أثرت هذه الأحاديث فى بعض أهل السنة .

و .. مـــا أكثر ما أفسد اليهود فى إدخالهم الكثير من الأحاديث الموضوعة .

ولـــم يمـــتد تأثـــير اليهود ومحاولة إفساد العقيدة الإسلامية فى العصور القديمة ، بل أنهم فى العصور الحديثة كثر فسادهم وإفسادهم عـــن طـــريق تشـــجيعهم للمذاهب الهدامة فى الشرق والغرب على الســـواء ، وعـــن طـــريق تشجيع المذاهب التى تدعو إلى الانحلال والتدهور وهذا هو شأنهم فى كل العصور.


الفصل الثالث
النبى عليه
الصلاة والسلام
والمستشرقون

النبى عليه الصلاة والسلام والمستشرقون

إذا كان هناك من حارب النبى عليه الصلاة والسلام حقداً وحسداً عندما جاهر بالدعوة إلى الإسلام ، وعندما بدأ نور الإسلام ينتشر بين الناس من أمثال أبى جهل وأبى لهب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وعبد الله بن أبى وغيرهم ، بجانب اليهود وعداوتهم السافرة للإسلام ونبى الإسلام .. فإن هناك أيضاً بعض المستشرقين الذين حاولوا تشويه صورة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أما جهلاً وإما عمداً ومع سبق الإصرار ، ولكن هؤلاء سرعان ما انكشف زيف آرائهم ، ووضح السبب وراء هذا الحقد الشديد على الرسول عليه الصلاة والسلام ، والإصرار على تشويه صورة ناصعة البياض .. ناصعة الطهارة ، غير صورة الحياة كلها على وجه الأرض .

ورغم هذه الافتراءات الكاذبة من جانب بعض هؤلاء المستشرقين ، نجد أن بعضهم الآخر لم يستطع أمام إنجازات الرسول وعظمة رسالته وخلودها وتأثيرها الهائل على البشرية .. أن ينكروا عظمة الرسالة والرسول .

والوقوف عند آراء هؤلاء المستشرقين وآرائهم شاهدة على عظمة الرسول ، فلو لم يكن له هذا التأثير العظيم فى التاريخ ومسيرة التاريخ . لما هاجمه بهذه الضراوة البعض منهم ممن أكل الحقد والحسد صدورهم ، ولما أشاد به من أشاد منهم .

وإذا كنا نرى اليوم هجمة شرسة على الإسلام بعد أن امسك الأمور فى البيت الأبيض الرئيس الأمريكى جورج بوش (الابن)

ومـــن معه من اليمين المتطرف ، والذين يشنون الحرب على الإسلام ويتهمونه بالتطرف ، ويحاولون تغيير أنظمة العالم الإسلامى بما يتفق مع تطرفهم ، فإن هذه الاتجاه سوف يسقط كما سقط من قبل ادعاءات المستشرقين المتطرفين ، والذين فهموا الإسلام فهما مغايرا للحقيقة ، فتجـــنوا علـــى الحقيقة وتجنوا فى نفس الوقت على أنفسهم ، إذ أنهم تعـــروا أمـــام حقـــائق الـــتاريخ ، وتعروا أيضاً أمام المنصفين من المستشـــرقين الذيـــن حكموا على الإسلام من خلال رؤية موضوعية وليس من خلال نظرة عنصرية كما فعل من قادتهم أهواؤهم أو جهلهم إلى النيل من الحقيقة .. والتجنى على الحقيقة نفسها .

فالرسول العظيم .. أعظم من عرفته الحياة ! فهذا الرجل الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب أنزل عليه كتاباً هو آية فى البلاغة ، وآية فى الإعجاز .. حـــث إتباعه على قراءته ، وعلى قراءة كتاب الكون من حولهم .. أى أنه حثهم على ما فيه خير دينهم ودنياهم .. عندما طلب من المؤمنين أن يتأملوا ملكوت السماوات والأرض ، وما يجرى من سنن الحياة ، إنها دعوة إلى التأمل وإلى العلم .. وإلى التحضر .. إلى فهم الحياة ، وقوانين الكون ، والعمل بالأسباب ، فى نفس الوقت الذى يدعوهـــم إلى العبادة ، ومعرفة موجد الوجود وخالقه من عدم سبحانه وتعالى .

لقد طالب القرآن الكريم المؤمنين به العمل بما جاء به لسعادتهم فـــى الدنـــيا والآخرة ، وبه المنهج الذى يصل الإنسان من خلاله إلى رؤيـــة مســـتنيرة للحياة وما بعد الحياة ، وفيه من التشريعات ما يقود خطـــى الإنســـان والمجـــتمعات إلى حياة فيها التكامل الاجتماعى ،

والتراحم بين البشر ، والتآلف بين الطبقات فى ظل العدل الكامل ومن خلال الإيمان بالتوحيد الخالص .. فالله هو موجد كل الكائنات ، وهو الــذى سيحاســب الإنسان على ما قدمت يداه ، وإن أفلت الظالم من عقاب الدنيا فلن يفلت من عقاب الآخرة .

هــذا التشــريع العظــيم الذى جاء به الإسلام ، وهذه العبادات الراقــية الــذى جــاء بــه الإسلام . وهذا الاعتقاد فى الله الواحد ، ومــا أنزله من معاملات بين الناس .. لا يمكن أن يصدر عن رجل أمــى لا يقــــرأ ولا يكتــب ، إذا لم يكن يوحى إليــه من قبــل الله الواحد الأحد .

" وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك .. "

(العنكبوت ٤٨)

جاء فى البخارى عن عائشة أم المؤمنين قالت :

أول مــا بــدئ بــه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الــرؤيا الصــالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا حدثت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهــو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك . ثــم يــرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حــراء ، فجــاءه الملك فقال : اقرأ قال ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثانــية حــتى بلغ من الجهد ثم أرســلنى فقال : اقرأ .. فقلت ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطى الثالثة ثم أرسلنى فقال :

" اقــرأ باســم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . أقرأ وربك الأكرم " . (العلق ١ – ٣)

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده .. "

كانت هذه البداية .

ثــم انطلقــت الدعــوة فى ســرية أول الأمــر ، ثم صدع بها الرسول .. واتبعــه البعض ، وحاربه البعض الآخر ، إلى أن هاجر إلــى المدينة ، وحارب فى مختلف الجبهات : جبهة قريش ، وجبهة المنافقيــن ، وجــبهة الــيهود ، وجبهة القبائل العربية الأخرى ، ... وانتصر فى كل هذه الجبهات ، ووحد شبه الجزيرة العربية كلها تحت رايــة الإسلام ، ثم انتشر الإسلام على يد خلفائه ليصل مد الإسلام ما بيــن حدود الصين ، وحتى الأندلس ، ثم يتوغل إلى جنوب فرنسا .. فى سنوات قليلة جداً من عمر التاريخ .

مــثل هذا النبى العظيم الذى أحدث فى الإنسانية مثل هذا الأثر الهــائل . لمــاذا يحاولون تشويه صورته ؟ فنرى مثلاً فى موسوعة (لاروس) الفرنســية وهى تعرض لآراء كتاب المسيحية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الذين هاجموا محمداً ما يأتى :

بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعنا فى فســاد الخلق ، لص نياق ، كرديــنالاً لم ينجح فى الوصول إلى كرسى البابوية ، فاخترع دينــاً جديــداً لينتقــم من زملائه . واســتولى القصص الخيالى والخليع . على سيرته . وسيرة باهومية (محمد) تكاد تقيم أدباً من هذا النوع . وقصة محمد التى نشرها رينو وفرانسيسك ميشيل سنة ١٨٣١ تصور

لــنا الفكرة التى كانت لدى أهل العصور الوسطى عنه . وفى القرن الســابع عشر نظر ربيل فى تاريخ إلى القرآن نظرة تاريخية ، ومع ذلــك ظلت مقررات ظالمة ثابتة فى نفسه عنه . على أنه يعترف مع ذلــك بان النظام الخلقى والاجتماعى الذى أقامه لا يختلف عن النظام المسيحى لولا القصاص وتعدد الزوجات " .

والذى يقرأ ما كتبه كتاب الغرب يندهش عن هذه الكمية الهائلة من الجهل الذى يعيشون فيه ، ومع ذلك لا يتورعون من الهجوم على النــبى علــيه الصــلاة والســلام ، ورغــم عدم معرفتهم الحقيقة به ولا بالديــن الذى جــاء به ، فهم يصفونه حينا بأنه مات فى لحظة سكر !! وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث !

وقد أكلت منه الخنازير !!

وبمــثل هــذه الافــتراءات الظالمــة والوقحــة ، تناول بعض المستشرقين حياه الرسول ..

وربمــا بــذر بذور الكراهية التى أبعدتهم عن الموضوعية فى نفوسهم ، الحروب الصليبية قديماً ، والتى كان الهدف منها البحث عن الــثروات فــى الشرق ، وليس الدين .. بل كان الدين وسيلة لخداع شعوب أوروبا أثناء هذه الحروب الصليبية .. يضاف إليها الاستعمار فــى العصــور الحديثة الذى زرع الكراهية فى قلوب الغربيين تجاه الإسلام .

وكــل مــا كتبه هؤلاء المستشرقون متأثرين بهذه العوامل التى أبعدهــم عن معرفة الحقيقة ، يعبر عنها بصراحة ر . ف بودلى فى

كتابة (الرسول .. حياة محمد) الذى ترجمه محمد فرج وعبد الحميد جــودة الســحار إنه يدحض افتراءات الغربيين على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال فى تقديم الكتاب عن الحديث عن سير الرسول التى كتبها الغربيون والشرقيون – على السواء :

" جميع هذه السير ينقصها شئ ، إنها غير كاملة وقد أخففت فى عــرض موضوعها من كل الزوايا ، فإن محمداً يظهر عادة كصورة محــددة علــى حــائط أبيض ، قد تكون الصورة روحية أو مادية أو مخيبة للآمال ، وأيا كانت الصورة فإنها منعزلة ، فمن النادر أن نجد الظــلال والبيئة ، وأن الصورة لتبدو صورة باهتة الصقت على ورق مقــــوى ملطــخ ، وما كان محمد سهلاً منبسطا ، فقد كان له أبعاد كثيرة ، وما كان هناك شئ لا لون له في حياته .

" وقرأت ما كتبه مؤلف عن محمد فكان من الجلى أنه لم يغادر نــيو انجلندا أبدا حيث كان يعمل راعى كنيسة . فكانت آسيا وأفريقيا أبعــد عــنه مــن الجــنة والنار ، وبرغم ذلك سود ثلاثمائة صفحة اســتعرض خلالها حياة محمد استعراضاً وثيقاً . كان أسلوبه مشرقاً وكــان يعرف الكتب المقدسة معرفة رائعة ويلم باللغة العربية إلماماً سطحياً ولكنه كشف عن جهل فاضح ، فما كان يدرى كيف كان محمد يعيش ولا ما جاء به وما كان يدعو محمدا فى كتابه إلا باسم (الدجال) دون أن يوضح لنا كيف أن الدجال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفــتح مســاحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة ، وكيف أتاح للبشرية حضارة ما زالت حتى اليوم قائمة .

وإن جــورج ســيل الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر ، والذى كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة أفضل صدر ترجمته بالأتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشــهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها أيها كان له شرف أن تكون مسقط رأس هوميروس .وأن مثل هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يــدل علــى رقــى فكر رجال ذلك العصر . ولكن لما فحصت عن شخصية محمد فحصاً دقيقاً الفيت الصورة فظيعة معيبة حتى انه لمن الغريــب أن مكــان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان . إن أى قطر ليخجل من إنجاب مثل هذا المجرم ، ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهــذا المخاتل الكبير عميقاً حتى أنهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيه أول تنفس يكتنفه ريبة أو غموض .

واســتمر هكــذا ، وان التعليق الوحيد على ذلك هو ان نستعير الألفــاظ من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيو انجلند الذى ذكرناه آنفاً :

كــيف اســتطاع مــثل هــذا المجرم ، مثل هذا المخاتل الكبير آلا تأخذ ديانته فى الزوال كما حدث لكثير من ديانات العالم فإنها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم ؟!

وكلام هؤلاء المستشرقين الذى أعماهم الحقد والحسد عن معرفة الحقــيقة ، وكتاباتهم الغثــة التى لا تستند إلى علم ولا منهج علمى ، ولكــن مجرد كلمات غبية حاقدة " ولو كانت لديهم آية ذرة من البعد

عــن الهوى والتزييف لتوقفوا أمام الإنجازات الحضارية الكبرى التى انجــزتها حضارة الإسلام ، وكيف برز من خلال هذه الحضارة فكراً راقياً مستنيراً أضاء ظلمات أوروبا نفسها ، وكانت هذه الحضارة هى الــتى نشرت أضواء العالم فى الغرب ، وهى التى أنقذته من التخلف والجهــل المطــبق ، فما كانت ترجمات ابن رشد للفلسفة الأغريقية وشرحها وترجمتها إلى اللاتينية إلا الأضواء التى أضاءت الحياة فى أوروبــا ، ولولا الفلسفة الإسلامية ، والعلوم الإسلامية لظلت أوروبا على جهلها وجهالتها .

ولتقرأ بعض ما كتبته المستشرقة الألمانية أ . د أنا مارى شميل فى المقدمة التى كتبتها لكتاب الدكتور مراد هو فمان .. وقد كان هذا المؤلــف ســفيراً لألمانيا فى المغرب ، وأعلن إسلامه بعد أن درس الإسلام دراسة متعمقة .. تقول هذه المستشرقة :

.. والإسلام مثل نحظى لتلك التأويلات الظالمة المشوهة ، كما نعهــد فــى لوحات فنانى القرن التاسع عشر الخريجين الذين شغفوا بتصــوير المســلمين (هذه هى الكلمة السليمة لا كما يقول البعض : المحمديون) برابرة غير متحضرين محاربين شاهرى السيوف ، أو مترفين غارقين فى مجال اللهو بين الحسان ، وكما نعهد اليوم إذ تقفز إلى الأذهان عند ذكر كلمة إسلام – صورة فقية متزمت ، أو صورة إرهابى وقح مط ، لا وازع له ، والحق أن تلك اللوحات وهذه الصور الــيوم تســتندان إلــى التأويل الخطأ الظالم ، والشرح الأثم ، والذى يســتطيع كــل من درس الحضارة الإسلامية ، أو خالط المسلمين أن يصوبه وبين خطأه وفساده .

لكنــنا ينــبغى أن نلتمس العذر لمسيحى القرون الوسطى ، فقد عــرفوا إن الإسلام تلا المسيحية فظنوا أنه زندقة وارتداد عن الدين (المســيحى) – لهذا شاعت الأسطورة التى زعمت أن محمداً لم يكن ســوى كاردنيال كاثوليكى خرج على البابا – بل قد ظن بعضهم أن الإســلام نوع من الوثنية أو الديانات المجهولة البائدة لعصور ما قبل الــتاريخ (ولهذا نلقى حتى فى أشعار الرومانسيين الألمان تصوراً لم يــنطمس أثــره حــتى اليوم للمعبود الذهبى الصورة : ما هومت أى محمد) وذلك التصور العجيب تشويه وإجحاف لدين جوهره الوحدانية المطلقــة ، فهو لا يعترف إلا بالله ربا ، ويشهد أن محمد رسول الله (ولد عام ٥٧٠ وتوفى عام ٦٣٢م) وقد دأب محمد نفسه على التأكيد أنه بشر يوحى إليه . وقالت :

" الواقــع أن الانتصــارات السياسية للأمة الإسلامية التى أخذ إتباعها أنذاك فى الازدياد بشكل مذهل ، حتى لقد تجاوزت عام ٧١١ مضــيق جــبل طــارق إلى الغرب ، وذلك لترسى قواعد الحضارة المشــرقة فــى الأندلــس ، وامتدت فى العام ذاته إلى ما وراء النهر وأضــعه الأســس التى عليها قامت صروح المجال الغنية بإشعاعات الإســلام المضيئة المتنوعة فى أواسط آسيا ، وامتدت كذلك فى تلك الفترة إلى مراكز الحضارة الهندية فى الهند والسند (جنوب الباكستان الحالــية) فصــبغتها بصــبغة إسلامية ، وضمتها إلى عقد الخلافة (الأمويــة) هــذا الامــتداد الشاسع ، ما كان ليهدى من روع الغرب المســيحى الذى لمس بأس الخلافة الإسلامية وتفوتها سياسيا وحربيا من المفهوم إذن إن يخشى الغرب تلك القوة الغالبة أنذاك .

فى الوقت نفسه ، أصبحت أسبانيا مركز إشعاع وبث حضارى بيــن أوروبــا والعـــالم الإسلامى وحتى يومنا هذا ، تشهد للحضارة الإسلامية مصطلحات لا حصر لها فى ميادين العلوم الطبيعية والطب والفلــك والحضارة بعامه ، ناطقة بتأثير الحضارة الإسلامية الرفيعة فـــى الأندلس حيث أظلت اليهود والنصارى والمسلمين بيئة واحدة ، ســـادها الوئام والتسامح والتلاقح الفكرى والحضارى ، ولا نظن أن ذلــك الصـــرح الحضارى الرائع تكرر وجوده فى أية بيئة متحضرة حتى يومنا هذا " .

وبعـــد أن تحدثـــت المؤلفة عن مزايا الإسلام ، وأراء الدكتور هوفمـــان ، نخـــتم دراســـتها بكلمة الشاعر الألمانى الكبير جوته فى الديـــوان الشرقى الغربى الذى يشهد له بالبصر العميق فى عالم الفكر الإسلامى :

– " إن يـــــك الإســـلام معناه القنوت .. فعلى الإســـلام نحيا ونموت " .

ولنقف عند آراء مفكر كبير ، اعتنق الفكر الشيوعى ، ثم درس المذاهـــب المعاصرة ، وأخيرا عندما درس الإسلام أسلم ، وقد حصل علـــى درجتيـــن للدكتوراه .. من جامعة باريس سنة ١٩٥٣ م (حول النظرية المادية فى المعرفة) والثانية من جامعة موسكو سنة ١٩٥٤ حـــول (الحـــرية) .. وكـــان نائباً عن دائرة السين ، ونائباً لرئيس الجمعـــية الوطنية الفرنسية ما بين عامى ١٩٥٦ ، ١٩٥٨ ، وعضواً بمجلـــس الشيوخ ما بين عامى ١٩٥٩ ، ١٩٦٢ ، وأسس فى باريس مركـــز الدراسات والأبحاث الفكرية والأيديولوجية عام ١٩٦٠ ويقول هذا المفكر الكبير بعد إسلامه ، وهو رجاء جارودى :

لقد كان شغلى الشاغل طيلة حياتى ينصب فى البحث عن النقطة التى يلتقى فيها الإبداع الفنى والشعرى بالعمل السياسى والإيمان ، وقد مكننى الإسلام بحمد الله من بلوغ نقطة التوحيد بينهما " .

وقد جاء هذا المفكر إلى مصر بمناسبة العيد الألفى للأزهر وفى هذا الاحتفال ألقى محاضرة عن (مستقبل الإسلام فى الغرب) .. وقد ترجم هذه المحاضرة الدكتور رجاء ياقوت ..

فـــى هذه المحاضرة قال أن الإسلام هو اليوم الدين الوحيد بين كل الأديان والنبوءات الذى ما زال فى حالة تقدم مستمر ..

فهـــو وإن أصــــابه الضعف ربما فى القرن الثامن فى الأندلس إلا إنه ما زال ينتشر فى آسيا وفى الهند وفى أندونيسيا بل فى أماكن أبعـــد من هذا فى ماليزيا وبورما وتايلاند والصين وكوريا واليابان ، وفـــى الفـــترة التى وقف فيها الزعيم جمال عبد الناصر فى مواجهة الغرب حدث فى أفريقيا السوداء تدهور فى المسيحية صاحبة انحدار فـــى الاســـتعمار ، ويتحرر كثير من الدول أصبحت القارة الأفريقية بأكملهـــا فى سبيلها لأن تكون قارة إسلامية كما وصلت الموجة أيضاً إلى أمريكا عند زنوج القارة الجديدة وفى آسيا الوسطى . وهكذا فإن هناك صورة جديدة للإسلام قد بدأت فى الظهور تكمل نهضته وتفتحه حـــتى داخـــل البلاد التى تسودها الضغوط السوفيتية . (قبل سقوط الاتحـــاد السوفيتى) وعندما تنفجر هذه الأفاق سيظهر للعالم أجمع أن الإسلام حى يستطيع مواجهة تحديات القرن كما استجاب فى الماضى لمتطلبات قارات ثلاث .

وبعـــد أن تحـــدث عـــن فشل النمط السوفيتى ، وفشل الرسالة التوراتـــيه ، والـــنمط الغربى ، وتعاليم عيسى عليه السلام ، قال عن تعاليم محمد صلوات الله عليه !

أمـــا النبى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن مجرد نبى وإنما كان أيضاً رجـــل دولـــة ومشـــرعاً وزوجـــاً وأبا وتاجـــرا وقاضياً وقائد حرب .

وأخـــذت الرســـالة النـــبوية أبعاداً جديدة لم يكن من الممكن أن تأخذهـــا وقـــت سيدنا عيسى عليه السلام فقد عمت على كل العلاقات الاجتماعية دون أن تفقد أبعادها الروحية أبداً .

وقد قيل فى القرآن الكريم :

" إن الله لا يغـــير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " هكذا كانت الخاصية القرآنية هى منهاج أخلاقى للعمل .. فالدين الإسلامى يرفض بـــتاتاً حياة الأديرة التى يكون فيها التأمل هو السبيل الوحيد والهدف الأسمى .

فالإنســـان فـــى القـــرآن هو الخليفة فى الأرض والقـــائم عليها وهو مســـئول تماماً عن تاريخه . لذلك فهذه الرسالة لا يمكن أبداً أن تـــنفذ إلا فى داخل الجماعة أو الأمة ، فالمسلم هو أول من يقتنع بأن الله قد خلقه ليكون مسئولاً عن مصير كل الناس .

هـــذه الأمة الإسلامية هى من نوع جديد ، فهى لا ترتكز على جماعة من نفس الدم أو من نفس العنصر ، ولا ترتكز على أرض أو

على سوق معينة ولا حتى على حضارة بعينها ، فهى لا تقوم على أى شـــئ يورث سواء فى الطبيعة أو فى التاريخ ، أو على أى شئ يقوم علـــى عطـــاء معيـــن أو علـــى ماض معين ، وإنما تقوم الأمة على الاختبار على الإيمان ، اختبار هو بمثابة الاستجابة للنداء والاستسلام لإرادة الله الذى يحتم على الفرد معاونة الآخرين ، سواء فى حاجاتهم المادية أو فى حاجاتهم الروحية .

كذلـــك فأنت لا تجد فى الإسلام شيئاً يجعلك تعتبر الدين مسألة خاصـــة أو شخصية ، ففكرة إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله غير مقـــبول بـــتاتاً مـــن المســـــلم ، فأى عمل إنسانى له أبعاده الروحية الســـماوية ، وأول واجب بالتالى على الحاكم هو إن يوائم بين أعماله والإرادة الإلهـــية ، غـــير ناظـــر لفـــائدة شخصية أو مصلحة تتعلق بمجموعـــة معينة أو بدولة معينة وإنما تتعلق بالعالم أجمع وبالإنسانية جمعاء .

وهكذا فـــإن الإيمان والســـياسة هما بعـــدان للإنســـان قد ظلا مختلطيـــن بالكنيســـة والدولة أى بمؤسستين رسميتين ، وهكذا اختلط الأمر على الناس " .

وهـــو يـــرى بعـــد أن تكلم عن قيم الإسلام المتمثلة فى عقائده وعباداته أن الإسلام هو تتويج لتراث إبراهيم عليه السلام الذى نادى الإســـلام ســـواء عن طريق اليهودية أو المسيحية بالبحث عن هدفه الأســـمى ، وهـــو يســـتطيع الآن أن يعطينا من جديد الأمل فى هذه المجـــتمعات الغربية التى تفككها النظام التكونوقراطى للحضارة الذى أدى لا إلى سعادة الإنسان ، وإنما إلى هدمه وفنائه .

وهكـــذا يمكن للإسلام أن يحمى الإنسان من النظام الخاطئ فى التنمية العمياء التى تؤدى إلى نهاية الحتمية .

ولن يمكننا نحن مسلمى الغرب ، أن نؤدى هذا الدور إلا إذا لم نغفـــل أبداً أننا كى نحترم أجدادنا يجب أن نوصل الشعلة لا إن نبقى على الرماد " .

وهكـــذا نـــرى كـــيف أن بعض كبار المفكرين فى الغرب قد استطاعوا أن يفهموا الإسلام على حقيقته ، عندما حاولوا رسم صورة له تتسم بالموضوعية ، لا بالجدل الأعمى ، ولا بالسنطة ، ولا بالحقد الـــذى أعمى الكثيرين منهم ، متأثراً بما ورثوه عن الأجداد ، وخيبة أمـــل الكثيريـــن مـــنهم ، عندما رأوا انتشار الإسلام فى كل مكان ، وانتصاراته المذهلة ، وحضارته التى غزت القلوب والعقول ، ومدت أضـــواءها فى كل مكان .. (هـــال البعض من هؤلاء المستشـــرقين ذلـــك ، وخـــاب أملهـــم أن تكـــون حضارتهم مستمدة من الحضارة الإســـلامية .. وها لهم أن تكون شعلة هذه الحضارة مضيئة براقة ، رافعة ألوية العدل والحرية والأخاء والجمال ، بينما هم يعيشون حياة لا تمـــت إلـــى الحضـــارة بســـبب ، وأظلتهم سحب التخلف والجهل والهمجية ، والبعد عن القيم والفضائل .

كمـــا أن هؤلاء الذين تحدثوا عن الإسلام بما ليس فيه ، لا لشئ إلا لتركية نيْران الحروب الصليبية ، أو حروب الاستعمار الحديثة ، رغـــم أنهـــم لـــم يدرسوه الدراسة الكافية ، ولا فهموه الفهم الواعى المســـــتنير فكانـــت كلمـــاتهم خاوية جوفاء ، تصل إلى حد البلاهة والغباء .

قـــال بعضــــهم أن الرسول كان مصاباً (بالصرع) وكان على رأس هــؤلاء الدكتور (لينكس) الذى أخذ يربط بين الصرع وبعض المشـــاهير وقـــال هذا الطبيب فيما قال " .. وإلى هذه الطائفة أضيف قيصر وكاليجولا ومحمد البغيض " .

فهــذا الطبيــب الغبى يتصور أن الرسول عليه الصلاة والسلام عــندما كـــان يوحـــى إليه ، كان فى الواقع مصابا بنوبة من نوبات الصرع ! .

وعلى حد تعبير عبد الحميد جودة السحار ، وهو يرد على هذا الافتراء الكاذب وغيره من الافتراءات يقول :

" قـــال الدكتور لينوكس أن الصرع الذى أصاب محمد (صلى الله عليه وسلم) من الصرع الخفيف . وقال إن هذا الصرع قد يختفى فى سن البلوغ . فإذا كان الصرع قد أصابه وهو فى الثانية أو الثالثة مـــن عمـــره ، فلماذا لم يختف لما وصل محمد عليه السلام إلى سن البلوغ ؟

إن الدكتور لينوكس يفترض أنه استمر معه وأنه هاجمه وهو فى غار حراء ، وراح بعدد صور الوحى ليؤكد ما وصل إليه فقال :

إنه أراد أن ينتحر ، وأنه سمع صوتا فإذا بوهمه يصور له أنه رأى جبريل ، وأنه كان يسمع صلصلة أجراس أو دوياً كدوى النحل عند رأسه " .

هـــذه هى الأعراض التى استند إليها لينوكس لتأكيد أن محمدًا ! (صلى الله عليه وسلم) كان مصاباً بالصرع ، ولم يأت بجديد فى عام ١٩٦٠ .

فكل شائنى محمد عليه السلام من الغربيين قالوا بهذا الافتراء ، أما أن محمد صلوات الله عليه وسلم فكر فى الانتحار لما فتر الوحى عـنه ، وأنـه كلما هم بأن يتردى من شواهق الجبال ظهر له جبريل وقال له :

أنت رسول الله حقاً .

فالحديث الذى روى ذلك منكر . وقول لينوكس بأن محمدا كان يسـمع دوياً كدوى النحل عند رأسه قول غير صحيح ، فالذين كانوا يسـمعون دوى الـنحل هم الذين كانوا عند الرسول عندما ينزل عليه الوحى . فقد قال عمر رضى الله عنه :

إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل "

فهـل من أعراض الصرع أن يسمع من حول المريض أصواتا كدوى النحل ؟!

وقـال صـلى الله علـيه وسـلم : إن الوحى يأتيه فى صوت كصلصـلة الجـرس أحياناً ، فصلصلة الجرس صنعة للصوت الذى يوحـى إلـيه ، فـيا ترى كيف كان الله يوحى إلى موسى ؟ ألم يكن الصوت من صور الوحى الذى نزل على كليم الله ؟!

وبماذا يريد الدكتور لينوكس أن يوحى الله إلى أنبيائه إن لم يكن بصوت من الأصوات أو بإلهام من الإلهامات أو ينفث فى الروع .

لـو أن الدكـتور لينوكس قـد أنكر الوحى كلية لما فكرنا فى عـتابه ، ولكنه عندما كان يذكر العظماء المصابين بالصرع لم يذكر

موســـى علــيه السلام ، مع أن التوراة تؤكد أن موسى خر صعقاً لما سأل الله أن يتجلى عليه ، فإن كان الدكتور قد أقر بنزول الوحى على موسى فلماذا ينكر نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ؟

ويقول الأستاذ عبد الحميد السحار :

لــو كان الدكتور عالما مجرداً عن الهوى وسلم بنزول الوحى علـــى موسى عليه السلام ، أو أى من الرسل الذين يؤمن بهم لوجب علــيه أن يســلم بــنزول الوحـــى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالحقيقة لا يمكن تجزئتها ، ولا يعقل أن نعترف بها مرة وننكرها مرة أخرى .

أننا أمام حالة من حالتين :

فإمـــا أن الدكـــتور لينوكس يؤمن بالوحى وبنزوله على موسى علــيه السلام ، وفى هذه الحالة لا مفر من اعترافه بنزوله على نبى الإسلام ، وإما انه لا يؤمن بالوحى ولم يذكر موسى عليه السلام بين المصـــابين بالصـــرع خشية من يهود أمريكا ، فهو فى كلا الحالتين أهـــدر نزاهة العلم وكرامة العلماء وأحب أن أسأل الدكتور لينوكس : لمـــاذا لم يتعرض لصور الوحى الأخرى التى ذكرها محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ألا إنها لا تخدم غرضه ؟ وهل من الأمانة العلمية سرد بعض صور الوحى دون بعض ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

" وإن جبريل ليأتينى فيكلمنى كما يأتى أحدكم صاحبه ، إنه كان بكلمـــة ويبصـــره بغير حجاب ولا غيبوبة ، وكان يأتيه على صورة

دحية الكلبى ، أو على صورة غيره ، وإن ظهور جبريل بصورة رجل كان تأنيساً لمن يخاطبه .

قال عمر رضى الله عنه :

بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ... وقد عرف بعد انصراف الرجل أنه جبريل ، فهل كان كل الجالسين مصابين بالصرع ؟!

ويقول بودلى :

" ما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوما ، وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً أو به مس من الجنون ، وإن كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد " .

لقد ملك محمد عليه الصلاة والسلام كل المقومات التى جعلت من شخصه أعظم شخصية فى التاريخ كله .. وحمل من الإمكانيات والأخلاقيات الرفيعة ما مكنه أن يكون أمه ، ويؤسس دولة ، ويقيم دنيا عظيما يشق طريقه إلى القلوب والعقول بمقوماته التى جعلت من هذه الأمة العربية أمة واحدة ، بعد أن كانت قبائل وعشائر متنافرة متناحرة .. وهو بجانب ذلك شريف النسب ، متكامل الشخصية ، بليغاً فصيحاً .. قال عن فصاحته الجاحظ : هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الضفة ، ونزه عن التكلف ، لم ينطق إلا عن ميزان حكمة ، ولم يتكلم إلا بالكلام قد حف بالعصمة ،

وشد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق .. ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق . لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح عن معناه ، ولا أبيَن عن فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن كما قالت عنه أم المؤمنين عائشة وكان شديد الخوف من الله ، شديد الاعتداد بنفسه بلا كبر أو كبرياء وكانت تضرب بأمانته وكرمه الأمثال .. فهو القائل كما يروى أبو هريرة :

أنا أولى المؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك دينا فعلى ، ومن ترك مالا فلورثته " .

وكان بين أصحابه كواحد منهم .. لا يتميز عليهم .. ومن ذلك أنه كان فى سفر ، وأمر أصحابه بإصلاح شاه فقال رجل : يا رسول الله على ذبحها .

وقال آخر : علىَّ سلخها

وقال آخر : على طبخها

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

وعلى جمع الخطب

فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل

فقـــال : علمت أنكم تكفوننى ولكنى أكره أن أتميز عليكم ، وان الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه .

وكـــان مـــع عظمته لا يعرف التجهـــم ، بل لا يرى إلا يلغى المســـافة بينه وبين الآخرين بالكلمة الطيبة ، والمرح الذى لا تخرج عن الوقار .

جاءته عجوز فقالت :

يا رسول الله .. أدع الله لى أن يدخلنى الجنة .

فقال :

– يا أم فلان .. إن الجنة لا يدخلها عجوز .

فولت تبكى فقال :

أخبروها إنها لا تدخلها وهى عجوز . إن الله تعالى يقول :

" إنا أنشأناهن همه إنشاء فجعلناهن أبكارا عربا أتراباً " .

ونـــبلغ عظمـــته المنتهى ، عندما يكظم غيظه ، عندما يسمع ما لا يحـــب ، وما ينبغى أن يقـــال فى حضرته فقد قســـم قسمة فقال رجـــل :

هذه قسمة ما أريد بها وجه الله !!

فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، فاحمر وجهه وقال :

رحم الله أخى موسى ، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول :

لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أحب أن أخــرج إليكم وأنا سليم الصدر " ورغم ما أوتى من المعجزات ، فلم يتــباهى بهــا ، ولا تحدث عنها ، بل كان يقول كما جاء فى القرآن الكريم :

إنما أنا بشر مثلكم .

قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مســنى الســوء " .

وما يقال عن كرمه .. وجوده .. وسخائه .. وشجاعته .. وثباته لا يكفيها مجلدات ، وكانت آياته الكبرى هو القرآن الكريم :

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " .

والقرآن كما يقول محمد أحمد جاد المولى :

" .. إن المفكريــن أجمعوا على أن أسمى أغراض الدين ، هو الســمو بالإنسان عن حظيرة الحيوانية إلى أفق التفكير ، وإعداده لأن يحــيا حــياة الفضيلة والاستقامة والتقوى ، ولا يتأتى هذا إلا إذا كان الديــن الذى يعمل به أقرب الأديان مثالا ، قيما لا عوج فيه ، صالحاً لكل زمان ومكان ، وإن لم يفطن لذلك بعض أهله .

والقرآن هو ضالة بنى البشر فهو :

" وكــتاب أحكمــت آياتــه ثم فصلت من لدن حكيم خبير " فيه الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، والأخبار الصادقة ، والمواعظ

الـــرائقة ، والشرائع الراقية ، والآداب العالية ، بيان ساطع ، وبرهان قـــاطع ، فهو فتاح للمنافع الدينية والدنيوية ، مصدق لما بين يديه من الكتـــب الســـماوية . وهو آية الله الدائمة ، وحجته القائمة . باق على وجه لكل زمان ومكان . دائر بين سائر الكتب على كل لسان فى كل مكان . وهو النور الآلهى فى أفق الدنيا حتى تزول وتفنى ، والمعنى القدسى فى دولة الكون حتى تدول وتفنى " .

ومـــع كـــل هذه العظمة ، وكل هذا التكامل فى شخصيته عليه الصـــلاة والسلام ، نرى هناك من المستشرقين من يهاجمه ، ويحاول أن يهدم الدين الذى جاء به ، بحجج لا تعمد للمنطق ولا للعقل .

ومن الأمور الذى هاجموها عن الرسول وعن الإسلام هو تعدد الـــزوجات ، دون أن يفطـــنوا أنهم فى أوروبا عندما يضيقون ذرعا بالزوجة الواحدة بسبب أو لآخر يلجأون إلى الخليلة .. أى يلجأون إلى الحرام . فهل يتساوى الذى يعيش فى ظل أمر شرعى يعرفه الجميع ، ويحفـــظ للـــزوجة حقوقها وواجباتها أم اللجوء إلى أمر غير مشروع يمكـــن أن يحطـــم الحـــياة الأسرية ، ويحطم فى نفس الوقت حقوق الزوجة والأولاد !

ولو درسوا الأسباب التى دعت النبى إلى التعدد ، لما تحدثوا بما تحدثـــوا به من افتراءات ، فقد كان لكل من تزوجهم سببا جعله يفعل ذلك ، إما لتأليف قلوب البعض ممن عادوا الإسلام ، كما حدث عندما تزوج جويرية ، وكان أبوها الحرث بن ضرار ســـيد بنى المصطلق بن خزاعة ، وقد هزمت قبيلتها ووقعت جوبرية وكانت تدعى (بره) فـــى الأســـر ، وتزوجها رسول الله ، ومن أجل ذلك أعتق المسلمون

الأسرى .. فقد قال المسلمون أن أصهار الرسول لا يسترقون ، ومن هنا أسلم بنو المصطلق .

وتـــزوج عائشة رضى الله عنها لهذه الصلة الحميمة بينه وبين أبيها الصديق وتزوج من حفصة أبنه عمر بن الخطاب عندما استشهد زوجهـــا فـــى غـــزوة بدر ، وعرضها والدها على عثمان بن عفان فصمت فتزوجها الرسول إكراما لعمر كما تزوج من صفية بنت حيى بـــن أخطب ، سيد بنى النضير ، تكريماً لها وظلت وفية له محبة له طوال حياتها .

وكـــان زواجه من السيدة زينب بنت جحش الأسدية عن الهدف منه التشريع ، وأن يكون الرسول نفسه قدوة فى هذا ، فقد كانت عند العـــرب عادة التبنى ، وقد تبنى الرسول عليه الصلاة والسلام زيد بن حارثـــة ، وعـــندما أبطل الإسلام التبنى أعتق الرسول عليه الصلاة والســـلام زيدا ، وزوجه لزينب ، وكانت معتدة بأصلها ونسبها ، ولم يعجـــبها أن تكون زوجة لزيد ، وكذلك كان أخوها عبد الله يعتقد هذا الاعـــتقاد ، فكـــيف تـــتزوج ممن لا يكافئها لقد تزوجت طاعة لأمر الرسول :

" ومـــا كـــان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً " .

وقصـــة زواج النبى من زينب بعد أن طلقها زيد ، وكرر عليه الرســـول القول بأن يحتفظ بها ، ولكنه آثر الطلاق بعد أن استعصت

الحياة معها ، وكانت مثار كلام كثير من المستشرقين ، وتصوروا أن الرسول هام بها حباً بعد أن رآها فتزوجها ، ونسوا أنها ابنة عمته وهو الذى زوجها لزيد . أى أنه كان يعرفها ورآها قبل ذلك ، فلم تكن هناك مفاجأة له عندما رآها بعد أن تزوجت من زيد ، وأنه أرادها لنفسه بعد أن أخذ بجمالها كما يقول المستشرقون !

وقد رد الأستاذ عباس العقاد عن هذه الفرية بقوله :

ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام ، تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى ، وليس أسهل من اسقاطها واسقاط المروجين لها بخبر واحد – لا شك فيه – من أخبارها الكثيرة ، وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمه النبى عليه السلام ، وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد ، وما كان جمالها خفياً عليه قبل تزويجها بمولاه ، لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولته وتراه ، ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشىء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس النفضيحة على المبطلين ، ليعلموا حقيقة القصة المحرقة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين ، وأن زيداً الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيراً عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه ، وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع

زوجهـــا كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إلـــيها . ويشـــعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ، ولكـــنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له ومـــيزه بهـــا على صحبه ، فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث ينـــبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيداً من حرجه ، وعوض زينب عن مهانتها لتعلم ويعلم الناس أنها كفء له وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة مفضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها ، ولـــيس مما يجبر خاطر الكســـير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولاً بزواجها .

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية ، يعاف من أجلها خلق الإنسان ، ويعاف الدين يدعو إليه من أجله ، ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه ، فإذا هو شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والإحسان إلى المرأة المجروحة فى عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فضيلة الصدق مـــع فضـــيلة العفـــة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالأفكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى " .

وهكـــذا نرى أن محاولات بعض المستشرقين النيل من الإسلام ونبى الإسلام ليس لها ما يبررها من منطق ، ولكنها مجرد محاولات لتشويه الإسلام ونبى الإسلام .

فالنــبى فى زواجه كان يحاول أن يصون حياة بعض الأرامل ، ولــيس بهدف متعة أو شهوة ، فالنبى عندما تزوج السيدة خديجة كان هو ما زال فى سن الشباب ، ولم يعرف عنه فى هذه المرحلة عبث أو بحث عن شهوة ، وكانت السيدة خديجة تكبره فى السن ، وظل يعيش معهــا مــنذ تزوجها وكان عمره خمسة وعشــرين عاماً أى أن بلغ الــرابعة والخمسين ، لم يتزوج غيرها .. فإين هو البحث عن المتعة الجسدية .!

ويقول مولاى محمد على فى كتابه (محمد رسول الله) : يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام : كان عزباً حتى الخامسة والعشــرين ، وعــاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الــرابعة والخمســين ، وتــزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين حتى لحق بالرفيق الأعلى .

وهكذا نرى أن افتراءات المستشرقين على الإسلام ونبى الإسلام افتراءات زائفة ..

فالــزواج فى الإسلام للعفة وصيانة المجتمع ، والتعدد لأسباب قاهــرة ، ولكــن المفروض فى التعدد العدل ، فإن استعصى العدل ، وهــو صــعب ، فواحـــدة .. والطلاق أيضاً عندما تستحيل الحياة الزوجية ، فلا يصبح هناك مفراً من الطلاق وإلا فما معنى أن يعيش إنسان مع آخر لا يطيق عشرته ، وما ينتج عن ذلك من فساد أو إفساد حيــن يلجــأ أحدهمــا أو كلاهما بعد أن استحالت العشرة بينهما إلى الخــيانة .. فالطلاق يكون الحل ، وعسى أن يجد كل منهما ما يسعده فى رحلة العمر .

لقـد كـرم الإسـلام المـرأة ، وأعطاها كل الحقوق التى تليق بإنسـانيتها ، فهـى فـى الإسلام كالرجل تماماً .. تتاجر بأموالها ، وتحـتفظ باسـمها عند زواجها ، ولها حرية التصرف فى أموالها ، والرجل هو المسئول عن نفقات المنزل ، وهى ليست ملزمة بالإنفاق إلا عن طيب خاطر .

فليست المرأة فى المجتمع الإسلامى كما كانت عليه فى الجاهلية حيـث لم يكن لها أية قيمة تذكر ، وكانت مهانة ، ويرثونها كرها .. أين هذه المهانة من قول سيد الخلق :

" كلكـم راع ومسـئول عن رعيته : الإمام راع ومسئول عن رعيـته ، والمـرأة راعـية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، والـرجل راع فـى أهله ومسئول عن رعيته ، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته .

ويقول أعظم رسل الله :

" أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان ..

وقـد انصـف الإسلام المـرأة حتى إنه جعل لها الحق فى أن ترث زوجها :

" ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد " .

وهو الذى قال عليه الصلاة والسلام :

الجـــنة تحـــت أقـــدام الأمهات وهى محاسبة أمام ربها كالرجل تماماً .. فلها نفس حقوقه وواجباته :

" ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً " .

بـــل أن المـــرأة قد اختصت بأمور لم يختص بها الرجل ، مثل ما عرضه محمد أحمد جاد المولى بك بقوله :

أ – فـــرض الإســـلام على الرجال الجهاد دون المرأة ، إلا إذا دهم العدو بلاد المسلمين ، فإن الدفاع يصبح مفروضاً على المرأة ولو بغير إذن زوجها .

ب – لا جزية على المرأة إذا غلب المسلمون على بلاد من بلاد أعدائهم وفرضوا عليهم الجزية .

جـ– لا ترى الشريعة الإسلامية قتل المرأة المرتدة ، وإنما تقتل الرجل .

د – لـــيس علـــى المرأة شئ من الدية إذا وجبت على العاقلة – جمـــع عـــاقل وهو دافع الدية – إلا إذا اشتركت المرأة فى القتل الموجب للدية .

هـ– لا قسامة على المرأة إذا وجبت القسامة على أهل قتيل .

و – لا تجـــب صـــلاة الجمعة والعيدين على المرأة ، بل على الرجل فقط .

ز – إذا كانـــت المـــرأة زوجة فنفقتها ومطالب معيشة الزوجية علـــى الـــزوج وحده ، ولو كانت ميسورة ، وإذا كانت أماً

ولهــا أولاد فقــراء فنفقــتهم على أبيهم ، ومن ذلك أجرة الرضـــاع والحضـــانة ، وإذا كانت بنتاً فنفقتها على أبيها وعلى غيره من أقاربها ، ما دامت خالية من الزوجية مهما تكن سنهاً ، وليس لأحد أن يجبرها على طلب المعيشة .

ممــا تقــدم يتبيــن أن الشريعة الإسلامية تكفلت بالمرأة بنتا ، وزوجا وأماً .. وحاطتها بكثير من العدل والعطف والرحمة .

وهنا سؤال هام : لماذا أباح الله لنبيه أن يتزوج من النساء أكثر مما أباح لغيره ؟

فقــد أحــل الله للناس عند الضرورة من الأزواج مثنى وثلاث ورباع ؟ وأحل لرسول الله أكثر من ذلك ؟

يقول لنا الباحث المرحوم أحمد التاجى مجيباً على هذا :

نعم لقد خص الله نبيه بحقوق ، وفرض عليه واجبات انفرد بها عن الناس ، وجعلها من خصائص نبيه .

فقــد فرض عليه مثلاً قيام الليل فى الصلاة ، وذكر الله أو قيام نصــفــه أو مــا يزيد عن نصفه ، ولم يجعل ذلك فرضاً على الناس كافة !

فقال الله سبحانه يخاطب نبيه :

" يــا إيهــا المزمل . قــم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا " .

فكــان النبى يصلى صلاة الليل حتى تتورم ركبتاه من الركوع والسجود .

وهــمّ جماعة من المسلمين أن يصلوا بصلاته فى المسجد على قراءة النبى فى بيته الملاصق للمسجد ، فصنعوا ذلك ليلة أو ليلتين ، فلما أحس بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انقطع صلاة الليل ، فلما أصبح سألوه عن ذلك فقال لهم :

خشيت أن تكتب عليكم صلاة الليل ، ولو كتبت ما استطعتم .

فعرفوا أن هذه الصلاة مفروضة عليه وحده دون المسلمين .

وكذلــك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم كما يصوم الــناس ، وأحياناً يواصل الصيام فيقضى اليومين والثلاثة صائماً ليلاً ونهــاراً ، صــياماً متواصلاً لا ينظر فيها. وأراد بعض أصحابه أن يصنع مثله ، فنهاهم النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال :

لا تواصلوا الصيام مثلى ، إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى .

وكما خصه الله بأنواع من العبادة لم يفرضها على غيره ، كذلك خصه بحقوق لم يجعل مثلها للناس ، والله لا يسأل عما يفعل .

فجعــل الله ســبحانه زوجات النبى صلى الله عليه وسلم أمهات للمؤمنين .

وحــرم على المسلمين أن يتزوجوا بهن من بعده ، وجعل ذلك مما يؤذيه .

فقال تعالى :

ومــا كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً . إن ذلكم كان عند الله عظيماً " . (الأحزاب ٥٣)

وأحــل للرسول أن يتزوج أكثر مما يتزوج الناس ، ولم يتزوج الرســول مــا تــزوج من النساء لينعم بجمالهن ، أو شبابهن ، وإنما تزوجهــن بأمر الله ، ولغايات يريدها الله فرسول الله صلى الله عليه وســلم قضى شبابه حتى جاوز الخمسين عاماً من عمره فى مكة . لم يــتزوج فيها بغير (خديجة) أم المؤمنين ، وهى تزيد فى السن عنه بســنين فلو كان الرسول صلى الله عليه وسلم يريد المتعة لطالب بها وقت الشباب .

ولم ينتظر حتى يجاوز الخمسين .

ولمــا توفيــت خديجــة ، حزن عليها وصبر ، ولم يتزوج من عائشة إلا بعد هجرته إلى المدينة بأشهر ، ويورد قصص زواجه عليه الصلاة والسلام :

ومن عائشــة ؟

إنهــا بنت صاحبه أبى بكر ، أول من صدق برسالته ، وواساه بماله ، وقداه بنفسه فى جميع الأحوال . وكان صاحبة فى الغار أثناء الهجرة المباركة وقال فيه :

" إن أمــن الــناس علــىَّ أبــو بكر .. ولو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذت أبا بكر خليلاً " .

وتــزوج الرسول (صلى الله عليه وسلم) من بنته بأمر الله ، تكريماً لصاحبه وأخلص الناس له .

وتزوج كذلك من (حفصة) بنت عمر بن الخطاب ، الذى أعز الله بــه الإســلام ، لينقذها من حزنها على زوجها الذى استشهد فى

(بــدر) ويعوضها عنه خيراً ، ويكرم الفاروق بمصاهرته ، كما أكرم الصديق من قبل .

وتــزوج مــن (زينب) بنت عمته ، بعد أن تزوجت (زيداً) مــولاه وتبنــاه فأبطل بهــذا الزواج نظاماً وضعته الجاهلية ، وجاء الإســلام ليضع على أنقاضه شــريعة عادلة ، فأباح ما حرموه بغير حق ، ولم يجعل للمتــنبى حق الولد فى شئ .

فتزوج الرسول من (زينب) ليقيم الشريعة ويكون للناس أسوة حسنة ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم أراد زينب لهوى فى نفسه لــتزوج بها وهى بكر ، وكان أولى بها . ولكنه لا يفعل إلا ما يريد ربه . يقول تعالى :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) . (الأحزاب ٣٦)

فالله هو الذى زوجه بها .

وأما (صفية) فكانت من اليهود ، وهم الذين عادوا رسول الله ونقضــوا عهدهــم لــه . وهم الذين حاربهم وقتل رجالهم ، ولكنه لا يكــرههم لدينهم ، ولا لعنصرهم ، وإنما لفساد قلوبهم وأعمالهم . فإنه نبى ، قلبه واسع حليم ، يسع الإنسانية كلها ، وقد أرسل للناس جميعاً بما فيهم اليهود والنصارى .

فــلا بــأس أن يــتزوج منهم ، ويصاهرهم ، ويتألف عقلاءهم ويعرفهم أنه يسالم ويخاصم فى الحق ، ولا ينبغى العدوان لذلك اختار (صــفية) من اليهود ، و (ماريه) من النصارى ، ليضم بيته جميع الطوائف .

فمـــاذا كان من المرأة اليهودية التى قتل أبوها وزوجها بسيوف المسلمين ؟

لاشـــك أن نفسها كانت قد امتلأت حقداً ومرارة من النبى صلى الله علـــيه وسلم والمسلمين فى أول الأمر .. ولا شك أن فى نفسها قد حدثـــتها أن تنتقم لقومها إذا ما خلت برسول الله صلى الله عليه وسلم ولكـــن النـــبى صلى الله عليه وسلم أخذ يحدثها بما صنعه قومها له ، ويكشـــف لها عن سوء أفعالهم التى كانت تجهلها ، ويذكر لها إحسانه لهـــم ، وصـــبره علـــيهم ، ومراجعتهم مرة بعد مرة ، ولكنهم قابلوا إحســـانه بالإساءة ، وسعوا فى الغدر به ، واغتياله ، ومحالفة عدوه ، وما زال يحدثها بذلك حين عاد بها من خيبر ، حتى غسل ما فى قلبها من مَوْجدة عليه ، وأدركت أنه رسول الله حقا رؤوف رحيم بالناس ، فغمـــر الـــنور فؤادها ، وبدد ظلمات نفسها فآمنت به ، وصار أحب الناس إليها ، بعد أن كان عدواً لها .

وقالت فصدقت :

" أنـــت يا رســـول الله أعز على من أبى وزوجى ، وأنا على دينك " وأما (أم حبيبة) فقد ابتليت بمفارقة زوجها فى الحبشة وهى بنت أبى ســـفيان ، زعيم قريش ، وقائد حربهم .. فماذا صنع الزواج بأبيها .

لقد أدرك أبو سفيان حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بنته ، متناسيا عداوة أبيها ، أن النبى صلى الله عليه وسلم يسالم من يسالم دينه ، ويخاصم من خاصم دينه ، وأن محمداً أعز البنت ولم

• يعز أباها . وانتشلها من الغربة والمذلة ، ليحمى إيمانها الذى فى قلبها حتى لا تفــتن فى دينها . فرأى (أبو سفيان) أن من الخير ألا يوغل فى العناد ، ويأبى الإسلام والكرامة .. وهذه بنته أعقل منه وأحزم .

وشــغلته هذه الأفكار نحو عام ، فطامنت من نفسه ، وقللت من كــبريائه ، وما زال يتطامن ويتضاءل حتى خلع ثياب كفره ، ودخل فى دين الله عند فتح مكة . وألقى بعداوته تحت قدمى رسول الله .

فكــان زواج بنــته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مما أضاء له السبيل ، وسار به إلى نور الحق .

وأما (جويريه) بنت الحارث ، فكانت أكثر النساء خيرا وبركة على قومها ، فقد اعتقت بزواجها من النبى صلى الله عليه وسلم مائتى بيــت من بيوت قومها .. أعتقتهم من الأسر والكفر بعد أن وقعوا فى أيدى المسلمين ، حتى قالت عنها عائشة :

" ما من امرأة أعظم بركة على قومها من جويريه بنت الحارث، فقد أعتقت بإسلامها مائتى بيت كانوا أسرى بأيدى المسلمين " .

ولــولا زواج الرسول بها ، ما حدث كل هذا الخير ، فقد صنع هذا الزواج مالم تصنعه الحرب فيهم .

وأما مارية القبطية ، فحين أسلمت ودخلت فى دين الله ، وولدت لــه غلامــه ، وعلــم بذلك أهلها ، اعتزوا بمصاهرة الرسول لهم . وســمعوا بعدله ورحمته ، وأنه يوصى بهم خيراً ، لأنهم أخوال ولده إبراهيم ويقول لأصحابه :

" إذا فتحـــتم مصـــر ، فاستوصوا بالقبط خيراً ، فإن لهم رحما ونســبا ، فــأدرك القــبط أن فــتح العرب لبلادهم لا محالة واقع .. وانـــتظروا الـــيوم الـــذى يخلصهم فيه المســلمون من ذل الرومان وعسفهم " .

و .. مـــا أكثر ما يمكن أن يقال عن عظمة نبى الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن هؤلاء الذين حاولوا ويحاولون النيل منه ، لن يستطيعوا أن يغيروا من نظرة المؤمنين به وبرسالته الخالدة ، وأن كلامهـــم مجـــرد هراء .. وســـيظل نور هداية للبشرية كلها إلى يوم الديـــن ، ولن ينقص من قدره ولا عظمته تلك الكلمات التى تنبع من نفـــوس مريضة ملأها الحقد والحسد ، ولكن عظمة الرسول وسيرته وطهارته وأخلاقياته الرفيعة ، وسلوكه المستنير ، وفضائله الرائعة .. لـــن ينال منها كلمات هؤلاء الحاقدين ، الذين أعماهم الحقد فأضلهم ، والـــذى استولى مع قلوبهم الحسد فأعمى بصائرهم ، ولم يتحدثوا من خلال منطق علمى ، ولا من خلال نزاهة العلماء .. فأصبحت كلماتهم لا تساوى المداد الذى كتبوا به كلامهم .

وســـتظل ســـيرة الرسول نقية نقاء الثوب الأبيض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وتبقى كلمة

عـــندما بدأت فى كتابة هذا الكتاب ، كان يستفزنى ما قرأته فى تاريخ السيرة العطرة ، من مواقف المشركين والمنافقين واليهود ، ثم اســـتفزنى أكـــثر مـــا قرأته عن بعض المستشرقين الذين ابتعدوا عن نزاهة الحكم ، وعن نزاهة الكلمة التى تعبر عن الحقيقة ، وحاولوا أن يبـــثوا سمومهم ، إما من أجل تشكيك المسلمين فى دينهم ، أو لخدمة أغـــراض تبشـــيرية ، أو بسبب نزعة الاستعمار ، ومحاولة السيطرة علـــى العـــالم العربى والإسلامى ، واستغلال ثرواته ، والهيمنة على مقدراته .

وفى كل الأحوال كانت هذه الآراء مبنية على الهوى ، ولا يراد بهـــا وجـــه الحقـــيقة ، ولا يراد بها الدراسة الموضوعية البعيدة عن الأهواء .. كل ذلك حفزنى أن أقرأ سيرة الرسول قراءة متأنية واعية مـــن خـــلال الكتب التى تتسم بالموضوعية ويتسم مؤلفوها بالحياد ، وأقـــارن بيـــن ما أقرأ ، وأُبعد مايتنافى عن المنطق .. ومع العقل ، وخرجـــت من هذه القراءات المتعددة للسيرة النبوية المطهرة وما قيل عنهما ، بأن رسولنا عليه الصلاة والسلام من اعظم رسل الله وأكثرهم تأثـــيراً على مسار البشرية كلها ، حتى أن عظمته جعلت بعض كبار المفكريـــن فى العالم أجمع .. حتى الذين ليسوا على دينه ، أن يشيدوا به ويدوره العظيم ، وأن يقفوا حيارى أمام عظمة هذه الشخصية التى ارتفعت بذكائها وإلهامها ، وقدرتها على فهم مجريات الحياة ، وغير

مـــتأثرة تماماً بما كان يسود العالم حينئذ من عادات وتقاليد وثقافات ، ليصـــنع عالمـــاً جديداً .. وفهماً جديداً ورؤية جديدة للحياة وما وراء الحـــياة .. إنه نادى بالحرية فى الوقت الذى ساد فيه الظلم والجبروت والطغيان .

ونادى بالجمال .. فى الوقت الذى ساد فيه القبح ونادى بالسلام فى الوقت الذى انتشرت فيه الحروب وسألت فيه الدماء .

وبشـــر الـــناس بقيم الخير والعدل والتكافل فى عالم انتشر فيه القهر والظلم وقهر إرادة الإنسان .

نادى بالرحمة والوئام واحترام آدمية الإنسان فى الوقت الذى لم يعـــرف العـــالم إلا القهـــر والاستبداد وقبل كل ذلك رفع الإنسان من حضـــيض الشرك بالله إلى نور التوحيد الخالص ، فأشرقت الأرض بنور الرسالة الخالدة ، ورفعت بذلك من إنسانية الإنسان .

أى عظمة تلك التى كانت للرسول الخاتم .. عظمة مستمدة من تواضعه وشجاعته ووفائه وإخلاصه وحبه للناس جميعاً .. وحبه حتى للحيوان والنبات وللجماد !

ومع ما كان له من احترام فى قلوب المؤمنين برسالته الخالدة ، ومع ما أفاء الله عليه من خير عميم فإنه كما قالت عنه عائشة رضى الله عنها .

" ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاثة أيام تباعا حتى قبض " !!

وهـــو الذى نادى بأن يقوم المجتمع على العمل الشريف ، فهو القائل :

" لأن يــأخذ أحـــدكم حــبله إلى الجبل ، فيأتى بحــزمة من الحطب يحملها على ظهره ، خير له من أن يسأل الناس ، أعطوه أو منعوه " .

وقال أيضاً :

" مــا أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده . وهو القائل :

إن مــن الذنــوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ويكفرها العمل والغم بالعيال "

والرجل الذى خلق مجتمعاً فوبا متألفا ، كان هو القدوة والمثال . وصفه ربه تعالى بقوله :

" لقــد جــاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " . (التوبة ١٢٨)

وتبلغ العظمة مداها بآخر رسل الله ، يوم أن جاءه أحد الأعراب يطلب منه شيئاً فأعطاه ، ثم قال له :

– أأحسنت إليك يا أعرابى ؟

فقال الأعرابى :

– لا أحسنت ولا أجملت

وأخذه الرسول إلى داره ، وزاده شيئاً وقال له :

– أأحسنت إليك يا أعرابى ؟

فقال له : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

قال له النبى صلى الله عليه وسلم :

" إنـــك قلـــت ما قلت ، وفى نفس أصحابى من ذلك شئ ، فإن عـــدت فقـــل بيـــن أيديهـــم ما قلت الآن بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك .

قال الأعرابى : نعم

ثم أقبل الأعرابى على مجلس النبى بين أصحابه .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

" إن هذا الرجل قال ما قال فز دناه ، فزعم أنه رضى أكذلك ؟

فقال الأعرابى :

– نعـــم فجـــزاك الله من أهل وعشيرة خيراً فقال عليه الصلاة والسلام يعلم الناس :

" مـــثلى ومـــثل هـــذا ، مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الـــناس ، فلم يزيدوهـــا إلا نفورا فناداهم صاحبها : خلوا بينى وبين ناقـــتى ، فإنى أرفق بها منكم وأعلم .. فتوجه لها بين يديها ، فأخـــذ لهـــا من قمام الأرض فردها .. حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها .

وأنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار .

لأنـــه عليه الصلاة والسلام كان على بينة من أمر ربه ، فكان يـــرى مـــا لا يراه الآخرون ، ويشعر بما لا يشعرون ، وهو القائل محدثًا عن سر من أسرار الله .. فيقول :

" لـــو تعلمـــون ما اعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً .. أرى مـــا لا ترون ، وأسمع ما لا تسمعون .. أطت السماء ، وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيها ملك ساجد لله .

والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الطرقات تجأرون "

وما أكثر السلوكيات الرائعة التى تراها ونحن نصاحب الرسول عليه الصلاة والسلام فى مواقفه العظيمة ، وكظمه الغيظ ، واحترامه مشاعر الآخرين ، وفهمه للضعف الإنسانى ، وتقدير كل ذلك .. تراه منعكساً فى سلوكياته .

قال أنس بن مالك :

كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم وعليه بُرد غليظ الحاشية ، فجذبـــه أعـــرابى بـــردائه جذبة شديدة ، حتى أثرت حاشية البرد فى صفحة عنقه ثم قال :

– يـــا محمـــد .. أحمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك !

فسكت النبى صلى الله عليه وسلم ثم قال :

– المال مال الله ، وأنا عبده، ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى.

قال الأعرابى : لا

قال النبى صلى الله عليه وسلم : ولم ؟

قال الأعرابى :

– لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة .

فضـــحك عليه الصلاة والسلام ، ثم أمر أن يحمل له على عبير شعيراً ، وعلى الآخر تمراً .

وكـــان عليه الصلاة والسلام مع كل ما وهبه الله له من وساقة وشجاعة وصبر ، شديد الحياء ، وهو القائل :

" الحياء خير كله ، لا خير فيمن لا حياء فيه ..

سلوكيات بالغة الإبهار .. من خلال أسلوب بالغ الجاذبية ، وقف معـــى مـــع هذه الصورة .. أو هذا المشهد الجميل ، الذى يدل على بلاغـــة الرسول الكريم وحسن منطقه ، وهو يصور فرحة الله بتوبة عبده :

" لله أفـــرح بـــتوبة عبده ، من رجل نزل منزلا ، وبه مهلكه ، ومعـــه راحلته عليها طعامه وشـــرابه فوضع رأســـه فنام ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، أو ما شاء الله قـــال : أرجـــع إلـــى مكانى فرجع فنـــام نومه ، ثم رفع رأسه ، فإذا راحلته عنده " .

وكان عليه الصلاة والسلام نظيفاً يجب النظافة ، وكان يقول :

تزينوا لنسائكم ، كما تتزين نساؤكم لكم " .

وكان يقول :

إن الله طيب ، ولا يقبل إلا طيباً ، وإن الله جميل يحب الجمال "

وهـــو مـــع كـــل ذلك لا يحب التشدد ، ولا التطرف حتى فى العبادات ، فكان يقول :

" إن الديـــن يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ثم نراه فى قمة العظمة أمام الضعف الإنسانى : فقد جئ له يوماً برجل سكران ، وقد حد من قبل ، ولكن عاد إلى سكره .. فقال الناس :

– لقد عاد فلان لعنه الله !

فقال الرسول :

– لا تلعنوه ! .. فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله .

وصدق قول الله سبحانه وتعالى عنه :

لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم " .

صـــلى الله علـــيك وســـلم يـــا رسول الله ، ويا خاتم النبيين ، ويا أعظم من سارت على الأرض له خطى .

المراجـع

- **القرآن الكريم**
- **كتب الأحاديث الصحيحة**
- **سيرة بن هشام**
- **تفسير القرآن العظيم** - لابن كثير
- **حياه محمد** - د . محمد حسين هيكل
- **العبقريات** - عباس محمود العقاد
- **أضواء على السيرة النبوية ومقارنة بين الأديان** - أحمد التاجى
- **خاتم النبيين** - الشيخ محمد أبو زهرة
- **سيرة النبى العربى** - أحمد التاجى
- **التفكير الفلسفى فى الإسلام مذاهب وشخصيات** - د . على النشار
- **جارودى** - الهيئة العامة للاستعلامات
- **الإسلام كبديل** - د. مراد هوفمان
- **رجال ونساء أنزل الله فيهم قرآنا** - د. عبد الرحمن عميرة
- **الأبطال** - توماس كارليل - ترجمة : محمد السباعى
- **مشاهد من حياة الرسول** - مامون غريب

تم بحمد الله وتوفيقه .

كتب للمؤلـف

- أضواء من السيرة العطرة	- مركز الكتاب للنشر
- نســاء فى حياة الأنبيـاء	- مركز الكتاب للنشر
- خـلافة أبو بكر الصـديق	- مركز الكتاب للنشر
- خــلافة عمر بن الخطاب	- مركز الكتاب للنشر
- خـلافة عثمان بن عفـان	- مركز الكتاب للنشر
- خـلافة على بن أبى طالب	- مركز الكتاب للنشر
- خامس الخلفاء الراشدين	- مركز الكتاب للنشر
- حجة الإسـلام الإمام الغزالى	- مركز الكتاب للنشر
- المهاجرون إلى الله	- مركز الكتاب للنشر
- الإمام الحسين حياتـه واستشهاده	- مركز الكتاب للنشر
- العوالم الخفية والقرآن الكريم	- مركز الكتاب للنشر
- أبطال الجهاد فى الإسلام	- مركز الكتاب للنشر
- ألف ليلة وليلة بلغة عصرية	- مركز الكتاب للنشر
- مع مشاهير الفكر والأدب	- دار المعــارف
- حديث الروح مع الشيخ الشعراوى	- دار المعــارف
- هؤلاء ورحلة الزكريات	- مكتبة مصر

- السحار والفكر الاسلامى - مكتبة مصر
- بيوت الله - دار غريب
- الإمام الشاذلى - دار غريب
- رابعة العدوية - دار غريب
- السيدة زينب رضى الله عنها - دار غريب
- المبشرون بالجنة - دار غريب
- ابن الفارض - الدار المصرية اللبنانية
- البوصيرى شاعر البردة - الدار المصرية اللبنانية
- أسماء بنت أبى بكر - دار الآفاق العربية
- جرائم غيرت مجرى التاريخ الاسلامى - دار الآفاق العربية
- فاطمة الزهراء - دار الآفاق العربية
- المرأة المسلمة وأمهات المسلمين - دار أخبار اليوم

الفهـــرس

مطابع آمـون

٤ الفيروز من ش إسماعيل اباظـة
لاظوغلى - القـاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ ـ ٧٩٤٤٣٥٦